عندما يهطل المطر

عندما يهطل المطر (الجزء الثاني من رواية حنين وحياة)

دينا رفيق المعلوف

الطبعة العربيّة الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

المراجعة اللغويّة: هبة شريقي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-472-6

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2022 /2 /777)

306

المعلوف، دينا رفيق

عندما يهطل المطر/ دينا رفيق المعلوف. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(80) ص

ر. إ: 777/ 2/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

دينا رفيق المعلوف

عندما يهطل المطر

الجزء الثاني من رواية: حنين وحياة

الإهداء

لقلبي أولًا..

فقد تعب كثيرًا في معارك الفشل، ورغم النهايات المؤلمة التي تعرّض لها في كلّ مرة فإنّه سيبقى مصمّمًا على أن ينجو في النهاية.

أهديها لـ«مروان»، صاحب الابتسامة الدائمة وبلسم القلوب، خالي الذي رحل عنّا منذ عام لكنّه باقٍ معنا للأبد.

أهديها لأمي التي تبقى دائمًا حجر الأساس في كلّ شيء. فلا شيء يكتمل دونها، ولا شيء يكبر دون وجودها.

أهديها لكلّ متألمٍ، فربّما تكون بلسمًا للجروح.

مع محبتي

دينا المعلوف

«عندما يهطل المطر».

«الماضي يعودُ يومًا. والأحلام تبقى مجرد أحلام».

«يمضي العمر بنا في رحلةٍ لا نكتب تفاصيلها ولا نعلم نهايتها، فالطريق الذي نمضي فيه ونظنّ أنّه اختيارنا وأنّنا رسمنا فيه حياتنا كما حلمنا بها، قد يتقاطع وطرق جديدة، وكلّما مرّ الوقت تعود إلينا الأحداث من جديد، وكلّ مرةٍ تأتي بصورةٍ جديدةٍ وتتساب تفاصيلها فينا فنشعر بالفرح نفسه والألم نفسه، ولا نعي أنّها القصة نفسها إلّا بعد فوات الأوان، وكأنّها دائرة نعيش بين جدرانها، تدور وتبقى هي الحكاية نفسها».

كم هي بعيدةٌ تلك النجوم التي أراها تلمع في سمائي كلّ ليلة! أجلس لأراقبها وأحلّلها وأبني منها قصصًا لم أعشها. لكلّ نجمةٍ اسم ولكلٍّ منها حكاية.

فأرى إحداها حزينةً تلملم من حولها بقايا قصصٍ عاشتها وتحاول النهوض من جديد، وأخرى تشعُّ فرحًا، تلمع بعنفوانٍ وتتوهج نورًا وأملًا كأنّها في حالة عشقٍ. نجومٌ بأشكالها وألوانها صارت قريبةً منّي كأنّني أعرفها وتجمعني بها ذكريات طفولةٍ عشناها يومًا، كأنّها صفحاتٌ أقرؤها كلّ ليلةٍ وأمضي معها في رحلةٍ ظننتها ستكون يومًا رحلتي.

وأنت هناك يا قمرُ، تراقبني من بعيد، تسمعني وتفهمني كأنّك صديقي الوحيد! صرت أحكي لك قصصي وأشكو إليك همي وألمي. فيا قمرُ، أتراه يسمعني أيضًا؟ هل يجلس كلّ ليلةٍ مثلي يناجيك، يحكي لك ويخبرك عنّي؟

هل تُرسل له سلامي؟ هل تخبره عنّي؟ هل قلتَ له إنّني أشتاق إلى رائحته؟ هل أخبرتَهُ عن جنوني وهيامي؟ هل أخبرتَه أنّني أحلم بأن يعود إليّ يومًا من جديد؟ هل أخبرته أنّني يوم فراقنا لم أدفنْه في قلبي كما قلتُ له ولم ألبس الحداد على قصته وإنّما رحلت بعيدًا وتركت قلبي معه؟

كم مرّ من الوقت؟ لا أدري، لكنّ حجم الألم في قلبي لم يتغيّر يومًا، ولم يكن الزمن كفيلًا بشفائي، وما زالت تلك الذكريات تتصارع داخل صناديقها المغلقة، تبحث عن سبلٍ لتخرج عن صمتها، كأنّها ترفض أن تنتهي! وكلّما شارفتُ على نسيانها تنتفض من جديد، ترفض الرحيل عنّي وتلتصق بي مرة أخرى.

فهل يتألم أيضًا مثلي؟ أم أنّ النسيان زاره ومسح عنه آثاري؟ هل يشتاق إليّ كما أشتاق إليه؟

هل يبحث عن تفاصيلي وملامحي على رمال البحر وبين نجمات السماء كما أفعل؟ هل يحلم بلقائي يومًا وينتظر تلك الصدفة التي

ستجمعنا يومًا ما في مكانٍ ما لنبدأ من هناك قصةً لم نعشها وحلمًا قد يتحقق؟

الفصل الأول

في شهر أيلول من عام **2005** كنت أستعدّ لحفل زفافي. ربّما كان ذلك القرار مفاجئًا بالنسبة إلى والدتي التي ظلَّت سنواتٍ تحاول أن تزوّجني، وكنت دومًا أرفض الارتباط دون الإفصاح عن السبب.

أذكر أنّها كانت ترتّب لي اللقاءات بدهاءٍ، على أنّها جاءت بمحض الصدفة، فكنّا أحيانًا نخرج للقاء بعض الأصدقاء، أجد أحد الحاضرين يحاول أن يتقرّب منّي، فأفهم عندها سبب مجيئنا وأجد حجةً لأنسحب بهدوء.

وأحيانًا أخرى كنت أعود من عملي لأجدها تُعدّ طعام العشاء وتطلب منّي ارتداءَ ثوبٍ جميل لاستقبال بعض الضيوف. وكما هي الحال دائمًا أرفض بحجةِ أنّني مرهقة بعد يوم عمل طويل، فأجلس معهم بعض الوقت ثمّ أعتذر وأعود إلى غرفتي.

عندما قلت لها في ذلك اليوم إنّني سأتزوج، شعرتُ بها ستقع مغشيًا عليها، فضحكتُ وقلت لها: «ما بك؟ ألا ترغبين في أن أتزوّج؟»، قالت لي ودموعها تنهمر على وجنتيها إنّ هذا الخبر أجمل ما سمعت منذ وقتٍ طويل.

كنا نجلس معًا لنكتب لائحة المدعوّين، ونخرج لشراء الملابس الملائمة لعروسٍ جميلة، كما كانت تقول لي. كانت سعادتها تفوق سعادتي

في ذلك الوقت؛ ربّما لأنّني لم أكن أعرف سبب قراري، ولم أفهم حينها أنّ ما أقوم به ليس إلّا محاولة يائسة منّي لأنسى وأمضي في حياتي.

كنت قد تعرّفت على «مروان» قبلها بثلاثة أعوام، لم يكن لقاؤنا صدفة، فقد ذهبت لزيارته أول مرة بوصفه طبيبًا نفسيًّا. أذكر يومها، في لقائنا الأول، أنّه نظر إليَّ وقال: «لِمَ أرى أمامي هذه الفتاة الجميلة وفي عينيها حزن لم أعهد رؤيته من قبل؟».

كان رقيقًا في تعامله معي، يحاول انتقاء الكلمات بعنايةٍ، وكانت نظرات التفاؤل والأمل ترتسم على وجهه.

لم يكن من السهل عليّ أن أبدأ حديثي معه، لكنّه كان ينصت إليّ ويحاول أن يشجّعني على الإفصاح عن تلك الأحاسيس التي كانت تحبس أنفاسي، فأبدأ حديثي دائمًا بصوتٍ مرتجفٍ، وفور أن أشعر بالطمأنينة أبوح له بكلّ شيء.

كان ينصت إليّ وعيناه في حالة تأهّب كأنّهما تراقبانني وتبحثان عن تفاصيل أخرى أخفيها عنه وترصدان تلك التغيرات التي تطرأ على ملامحي عندما يزداد الألم في حديثي.

أخبرته قصتي. أخبرته عن لحظة الفراق التي فيها حاولت أن أكون قوية وأن أخفي انكساري. أخبرته كم كنت أحبّه وكيف بدأت قصتي معه.

كان يدوّن الملاحظات في دفترٍ صغيرٍ كأنّه يرسم فيه تفاصيل حياتي ويعيد تشكيل خارطتي من جديد، وكلّما مرت لحظات من الصمت يقول

لي: «تابعي، فالألم لن يزول إذا بقيتِ تخفينه في داخلك. قولي ما شئتِ وابكي إن شعرت برغبة في البكاء. أريد منكِ أن تُخرجي الأحاسيس والمشاعر كلّها التي تخفينها. أعلم أنّك قويةٌ جدًّا وأنّك قادرةٌ على تخطي هذا الألم. ثوري وانتفضي وانهضي. إيّاك أن تستسلمي. الحياة لا تقف يومًا عند أول عثرةٍ أو لحظة فراق. لا تقلقي، ستمضي الأيام وستفتح لك الحياة أبوابًا لم تعرفيها، وستهديكِ أيامًا جميلة. هل تعرفين لماذا؟ لأنّك تستحقين أن تعيشي سعيدة. اخلعي عنك ثوب الحزن وارتدي أثوابًا بيضاء مثل قلبك».

كانت كلماته دومًا تأتيني كالسحر، فلا أعرف كيف ينتهي الوقت معه سريعًا، وكيف يستطيع في كلّ مرةٍ أن يعطيني جرعةً من الأمل، فأخرج بعد لقائنا كأنّني وُلدت من جديد! لكن بعد مرور بعض الوقت أعود لحزني كأنّ شيئًا لم يتغيّر.

استمرّت لقاءاتنا لأشهرٍ، كنت فيها مجرّد اسم في دفتر مواعيده، وكان بدوره ملجئي وخلاصي، الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أتحدّث معه عن أيّ شيء بلا خوف.

في تلك الفترة بدأت علاقتنا تتحوّل من علاقة مهنيّة بحتة إلى علاقة صداقة، وبعد انتهاء فترة علاجي التي دامت عدّة أشهر وربّما عامًا أو أكثر، لم يقطع علاقته بي، بل صار ينتهز الفرص للقائي والتحدّث معي.

لا أدري إن كان قد أحبَّني في تلك الفترة أو أنّ صداقتنا في الأعوام التالية كانت سببًا في تقرُّبِه منّي، فبدأت الأحاسيس تكبر في داخله وتزيد تعلّقه بي.

ولا أعلم إن كان إحساسه تجاهي حبًّا أم واجبًا، أو ربّما كان ذنبًا يحمله ويحتّم عليه التقرّب منّي والبقاء معي لمساعدتي في النهوض.

كان يعلم أنّني أرفض الارتباط ويعرف أنّني ربّما لن أقبل به زوجًا في يومٍ من الأيام، لكنّه كان مصمّمًا على أن يبقى معي مهما طالت مدة الانتظار.

كان يرسل إليّ الورد والبطاقات وعلب الحلوى، إذ كان يعلم أنّني أحب الحلويات. كان يعرف كلّ شيءٍ عنّي، وأصبحتُ له هدفًا لن يثنيه عن الوصول إليه أيّ شيء.

في أحد الأيام، أثناء وجودي في مقرّ عملي، أرسل إليّ باقة وردٍ بيضاء رائعة، كانت قد صُمِّمت على هيئة طائرٍ أبيض فارد جناحيه كأنّه قد خرج للتوّ من قفصه.

رأيت نظرات الاندهاش في وجوه الجميع؛ شعرت ببعض الحرج، حملتها ووضعتها على طاولةٍ قريبة من مكتبي ورأيت عليها بطاقةً كُتِبَ فيها:

«ابتسمي، فالحياة إن رأتك مبتسمة سترسل لكِ فرحًا من حيث لا تدرين. لا تنظري خلفك وافردي جناحيك وطيري معي إلى فضاءٍ جديد.

مع حبّي، مروان».

لا أدري لماذا أمضيت ساعاتٍ أنظر فيها، شعرت بأنّ الورد يهمس لي، كأنّه سطور جديدة أكتبها في صفحة كتابي. لم أعلم حينها أنّ غداً يخبّئ لي باقاتٍ من الورد لأزيّن بها قاعة الاحتفال في ليلة زفافي.

كنت مرتديةً فستاني الأبيض، أمشي بخطواتٍ بطيئةٍ كأنّ شيئًا في داخلي يقاوم ويرفض هذا الزواج، لكنَّ قوةً أخرى كانت تسحبني إليه بينما كان مروان هناك ينتظر وصولي.

لن أنسى نظراته عندما رآني، كان ينظر بدهشة كأنّني حوريّة بحرٍ أطلّت عليه من أعماق المحيط. اقترب منّي وهمس: «أنت أجمل عروسٍ أراها في حياتي».

أمسك بيدي ومشى معي.

كان يعلم أنّني لم أُشفَ من جروحي بعد، وأنّ شبح الماضي ما زال يزورني ويعيدني إلى قصةٍ عشتها منذ زمنٍ طويل، إلّا أنّه أحبَّني.

سافرنا معًا لقضاء شهر العسل، كان قد أخبرني أنّ رحلتنا ستكون مفاجأة أعدّها لي، لم يطلعني على وجهتنا رغم تصميمي على معرفتها.

لا أنكر أنّه كان رائعًا في كلّ شيء. كان طيّبًا، حنونًا وواضحًا، يتفهّم تقلّباتي ويحاول أن يعطيني القوة دائمًا، كان يرسم لي الحياة بشكل جديد، ربّما لأنّها المرة الأولى التي أكون فيها مع رجلٍ يحبّني بصدقٍ، ولا أذكر أنّ يومًا قد مرّ دون أن يخبرني فيه كم يحبّني. ما كان يؤلمني حينها أنّني لم أكن أبادله تلك الأحاسيس الصادقة رغم محاولاتي أعوامًا طويلة.

كان بالنسبة إليّ زوجًا وصديقًا، عشنا معًا سنواتٍ رائعة وأنجبنا ابنتنا «أحلام».

«هل يمكن أن ننسى؟ هل يبقى الحب الأول ملتصقًا بنا؟ هل نعيش على أطلال قصصٍ مضت؟ وهل تتحقّق الأحلام يومًا، أم أنّ أجمل القصص تبقى حبرًا على ورق؟».

هبطت الطائرة بعد رحلةٍ طويلة إلى ماليزيا، استقللنا سيارة الأجرة التي كانت في انتظارنا، ثمّ ركبنا القارب متوجّهين إلى جزيرة بعيدة تُدعى «جزيرة بوم بوم». لم تكن اسمًا مألوفًا ولم أفهم كيف وصل مروان إليها وقام بحجز أحد الأكواخ الراسية فوق سطح الماء!

كان منظرًا خلّابًا، لم أرَ في حياتي لون البحر بهذه الزرقة! كان الهدوء الذي يخيّم على المكان يضيف إليه رونقًا خاصًّا ويأخذك معه في رحلة من الأحلام. كنت أراقب أمواج البحر الهادئة وأستمع إلى صوتها كأنّها موجات من ذبذبات الذكريات. علاقتي بالبحر ليست على ما يرام، فأمامه طويتُ صفحة كتابٍ كان بالنسبة إليّ حياتي كلّها. لقد كان البحر شاهدًا على نهايات مؤلمة أمضيت سنوات عمري أحاول أن أمحوها من ذاكرتي.

ذلك البحر الواسع الأزرق العميق، لا أدري إن كان مذنبًا فابتلع في لحظة غدرٍ أحلامي كلّها، أو أنّه ما زال ينتظرني لنفتح معًا صفحة جديدة.

عندما دخلنا إلى الكوخ وجدته مزيّنًا بالورد والشموع وسمعت الموسيقى الهادئة. وقبل أن أخطو أول خطوةٍ حملني مروان وسار بي إلى

الداخل. أخذت أضحك رغم اللحظات الرومانسيّة التي أرادني أن أشعر بها! لا أعلم لمَ أصابتني نوبة من الضحك!

وضعني على السرير، جلس بجانبي وأمسك يدي. قال لي: «أريد أن أحبك كلّ يومٍ حتى الممات. أريدك أن تشعري بفرحٍ ما عرفتِه يومًا وأن تكوني معي دومًا. أريد أن أبني معك بيتنا وننجب أطفالاً ونكون عائلةً رائعةً. كم أحبّك يا «حنين»! وكم أتمنّى أن تحبّيني يومًا ما كما أحبّك!».

مدّ يده وقال: «هل ترقصين معي؟».

لا أعلم ما أصابني بينما كان يعانقني ونتمايل معًا على أنغام الموسيقى، كأنّ صورًا من الماضي عصفت بي وبدأت ترتطم بأسوار عقلي، وكأنّ ريحًا هبت وقذفت رماد الذكريات أمامي، فشعرت بألمٍ عميقٍ يمزّقني.

في تلك اللحظة تذكّرت كلّ شيء، الموسيقى والشارع القديم. تذكّرت حفلاتنا ولقاءاتنا، قبلاته ورائحته التي أذابت قلبي. كنت أودّ أن أصرخ بأعلى صوتي. أريد أن أصرخ وأقول: لماذا تخلّيت عنّي؟ لماذا قتلتني؟ لماذا عدت لي بعد أن ظننت أنّني قد محوتك من حياتي؟ لماذا تقتلني كلّما عدت للحياة؟ لماذا تتلذّذ بتعذيبي؟ لماذا كنت قاسيًا معي؟

ما هي إلّا لحظاتٍ حتى بدأت أبكي؛ عانقني مروان وقال لي: «لا تبكي يا صغيرتي، سأمسح دموعك وأغسل آلامك كلّها. أحبّك حبًّا لم يعرفه أحد. ستكونين أميرتي وجميلتي وحياتي كلّها».

عانقته بقوةٍ وقلت له: «ساعدني لأنسى. ابقَ معي. لا تيأس أرجوك. ربّما يكون الزمن كفيلاً بشفاء الجروح».

أمضينا في تلك الجزيرة أسبوعين، لم نتحدّث فيهما عن تلك الليلة أبدًا وكان مروان كما عهدته متفهّمًا، صبورًا ورائعًا. وكنت أحاول دومًا أن أظهر له سعادتي وإن اضطررت إلى أن أتصنّعها في كثيرٍ من الأحيان.

كنت أعيش في تلك الفترة مرحلةً انتقاليّة، متمسّكةً بالطريق الجديد الذي قررت أن أمضي فيه، فأقف كلّ صباح أمام مرآتي وأقول لنفسي: «سأنسى، سأمضي ولن أنظر إلى الوراء، لن أكون ضعيفة كما أرادني. لن أستسلم للألم الذي زرعه في كلّ زاوية من زوايا روحي، لن أنسى قسوته وإن كان الآن يتألّم. دعيه يتألّم فربّما يشعر بما اقترفت يداه».

بعد مرور عام كنّا قد رزقنا بابنتنا «أحلام» التي جاءت إلى الدنيا وأحضرت معها أيامًا من الفرح والسعادة. منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها شعرت بأنّ شيئًا داخلي قد تغيّر، كأنّها أنارت عتمة قلبي وبنظرة طفوليّة منها امتلكت أحاسيسي وعواطفي وأصبح الحب كلّه الذي يفوق قدرة قلبي على التحمّل يغيّر طريقهُ ليستقرّ عند عتبة أحلام.

أصبحت أحلام حياتي كلّها. تركت عملي وتفرّغت لتربيتها والاهتمام بها، وفي تلك الفترة أغلقت الكتاب القديم ولم أعد أفكر فيه. كنت أشغل وقتي كلّه في الاهتمام بها، نذهب إلى الحديقة، أُجلِسُها في عربتها وتراقب الأطفال وهم يلعبون. كانت أحلام جميلةً جدًّا ودائمة الضحك. كنت أقرأ

لها القصص وأجلس معها لنشاهد التلفاز ساعاتٍ، وعندما يعود مروان من عمله وتسمع صوت دقّاته على الباب تبدأ بالصراخ كأنّها تحاول أن تركض إليه وتعانقه.

أحبّها مروان بطريقةٍ جنونيّة، وكان في كلّ يومٍ يحضر لها الهدايا والألعاب.

في تلك الفترة كنّا قد أصبحنا تلك العائلة السعيدة التي وعدني بها مروان. كان صادقًا يفي بوعوده.

تخلّيت عن الماضي ولم أعد أتمسّك بتلك الذكريات التي ظننت أنّني قد محوتها من حياتي ولم أعلم حينها أنّها كانت في حالة سباتٍ وأنّها يومًا ما ستستيقظ من جديد.

الرابع من نيسان عام 2010

خرجت في الصباح وقد كنت على موعدٍ للقاء «حياة»، صديقتي التي لم تتركني يومًا وكانت معي في أكثر لحظات ضعفي وألمي.

لم يكن لقاؤنا في الماضي صدفة، بل إنّ القدر قد وضعنا في ذلك الطريق وجمعنا بطريقة غريبة لا يمكن للعقل أن يتخيّلها، ومنذ ذلك الوقت ونحن صديقتان.

اتصلت بي صباحًا:

- حنين، هل ما زال موعدنا قائمًا؟ أنا في طريقي إلى المقهى.
- أوافيكِ هناك بعد قليل.

كنت أشعر بالسعادة لأنّنا لم نلتقِ منذ فترة طويلة، فقد سافرت حياة إلى لندن مع زوجها منذ بضعة أعوام، واستطاعا أن يفتتحا مطعمًا هناك يقدّم الوجبات العربيّة. كانت دائمًا تحدّثني عن أحلامها وعملها، ترسل إليّ الصور، تشاركني اللحظات كلّها والذكريات وتقاسمني فرحها وحزنها الذي ما زال يحتلّ جزءًا من حياتها رغم أنّها كانت دومًا قويّةً جدًّا ولديها تلك القدرة الغريبة على نسيان أيّ شيء والمضيّ قدُمًا في طرقٍ جديدة. لم نتطرّق إلى الحديث كثيرًا عن الماضي، فقد تعاهدنا منذ لقائنا الأخير أن نطوي الصفحة وأن نبدأ حياتنا من جديد.

كنت سعيدة جدًّا بلقائها ولم أستطع أن أتمالك دموعي، فقد مرّ وقتٌ طويل على آخر لقاء جمعنا وكنت متشوّقة إلى أن أخبرها كلّ شيء عنّي وأسمع عنها كلّ شيء.

جلسنا نتحدّث ساعاتٍ. لا أعلم كم مرّ من الوقت، لكنّه مرّ سريعًا جدًّا. أخبرتني عن زوجها والمطعم والحياة التي تعيشها، وأخبرتها بدوري عن مروان وأحلام، كانت أحاديثنا تعطي انطباعًا بأنّنا قد طوينا صفحة الماضي ومضينا في طريقنا كأنّنا نعيش حالة سعادة لم نعشها من قبل، وكأنّ آثار الجروح قد زالت، بل كأنّنا لم نعش يومًا قصةً أخرى وربّما كانت تلك القصص مجرّد كابوسٍ لم يحدث قطّ، إلّا أنّ هذا الأمر لم يدم طويلاً.

- أَلا تفكرين في العودة للعمل؟

سألتني حياة، فأجبتها:

- ربّما أعود قريبًا، فبعد التحاق أحلام بالمدرسة، لا بدّ أن أجد الوقت للعمل من جديد.

وبينما كنا نتحدّث بدأت أشعر بأنّ هناك شيئًا تخفيه عنّي كأنّها تصارع أفكارها لإخفائه؛ فسألتها:

- هل هناك شيء يزعجك؟

أسندت رأسها إلى يدها وبدأت ترسم بأصابع يدها الأخرى دوائر ورسوماتٍ على الطاولة، أرعبتني تلك الحالة التي رأيت بها حياة، شعرت بأنّني أستعدّ لمصيبةٍ سأسمعها بعد لحظات. سألتها بقلقٍ شديد:

- حياة، ما بك؟ هل أصابك مكروه؟ أخبريني، ما الذي تخفينه عنّي؟

نظرت إليّ وقالت بصوتٍ مرتجفٍ وكلماتٍ كدت لا أسمعها:

- رأيتُ زياد!

لم يكن وقع الاسم عاديًّا على مسمعي. شعرت باهتزازٍ عميق كأنّ يدًا تحاول اختراق قلبي وانتزاعه من صدري. «زياد»! لم أسمع هذا الاسم منذ سنوات!

شعرت بأنّ الأرض قد تصدّعت، كأنّني أهوي إلى داخل أعماقها. وبينما كنت في حالة من اللاوعي أكملت حديثها:

- جاء إلى لندن مع زوجته والتقينا صدفةً عندما دخلا إلى المطعم. كانت مفاجأة غير متوقّعة. لقد تغيّرت ملامحه كثيرًا يا حنين، بالكاد عرفته. هل تصدقين؟

حاولت أن أجد الكلمات لأسألها. أحسست بأنّني أفقد قدرتي على النطق في تلك اللحظة، وشعرت بحالة من الجفاف أصابت فمي وبارتجاف شفتيّ، تحوّل لون كلّ شيء حولي إلى الأسود، لكنّني استجمعت حروفي وسألتها:

- هل تزوج؟ زياد!

كم كان صعبًا أن أنطق حروف اسمه من جديد! كأنّ للحروف وزنًا مختلفًا، فقد بدت ثقيلة جدًّا وبالكاد استطعت أن أنطقها.

قالت لي:

- نعم، لقد طرحت عليه هذا السؤال وأخبرني أنّه تزوج منذ مدة، لكن لا أظنّ أنّه سعيدٌ، فكما قلت لكِ، لقد تغيّرت ملامحه كثيرًا. أطال لحيته وغزا الشيب شعره وبدا كأنّه قد كبر عشرين عامًا. كان الحزن واضحًا في ملامحه.
- وهل يعيش في لندن الآن؟
- لقد كان في إجازة وعاد إلى بيروت مع زوجته.

نظرت إليها بتعجُّبٍ وقلت:

- بيروت؟ هل يعيش هنا مع زوجته؟
- هذا ما قاله لي.

وبينما ظلت حياة تتحدث عنه، بدأت أشعر بإعياءٍ شديد وأحاول إخفاء آثار الصدمة عن وجهي. تظاهرت بالإصغاء إليها ورسمت ابتسامة على شفتيّ وفي قلبي عاصفةٌ من الدموع توشك أن تنفجر في أيّ لحظة.

بدأت خيالات الماضي تنقضّ عليّ بكلّ شراسةٍ وتتراكم في عقلي وقلبي، كأنّ الماضي كان في الأمس وكأنّني اليوم أُقتَل من جديد.

صرت أراقب الساعة وأنتظر أن يمضي الوقت ليحين موعد عودة أحلام من المدرسة، فأتّخذ من ذلك حجّة لأودّع حياة. ودّعتها واتفقنا على اللقاء مرة أخرى قبل سفرها.

كنت أحاول الوصول إلى سيارتي التي بدت بعيدة جدًّا عنّي، وقد شعرت بالدوار كأنّني سأقع في أيّ لحظة، تمالكت نفسي وفور أن وصلت وأقفلت الباب انتابتني نوبة بكاء. بكيت حتى شعرت بالدموع تحرقني.

أصابني في ذلك الوقت شعور بالألم يمتزج بالخجل والندم، فلماذا أبكي الآن؟ ما ذنب مروان؟ ودون وعي وجدت نفسي أذهب إليه كأنّني أبحث عن الإحساس بالأمان والطمأنينة الذي لطالما منحني إيّاه.

وصلت إلى العيادة وبدأ قلبي ينبض بسرعةٍ كبيرةٍ. فور أن رأيت وجهه عانقته بقوةٍ وانهمرت دموعي.

نظر إليّ وقال مرتبكًا:

– ما بك؟ لمَ البكاء يا حنين؟

قلت بصوتٍ مرتجفٍ:

– لا أريد، أخرجني من هناك لا أريد العودة أبدًا.

لم يفهم كلماتي، لكنّه شعر باضطرابي وكان يعلم بتلك النوبات التي تصيبني فأشعر بحالة من الضياع، كأنّني أجد نفسي على حافة الهاوية وأوشك على السقوط إلى أعماق الماضي؛ عانقني بقوة وقال:

– لا تخافي. أنا هنا معك. لا تقلقي يا حبيبتي.

وبدأ يهمس بكلماته السحريّة التي لها تلك القدرة الغريبة على إعادتي من ذلك العالم البعيد لأشعر بالهدوء والراحة.

مضت عدّة أيامٍ لم يسألني فيها مروان عن الحالة التي رآني بها أو عن سبب بكائي وقد مرتّ شهور طويلة لم تنتابني فيها حالة الانكسار تلك وبدأت ألملم الأحزان التي تشوّه روحي وأستعيد من الماضي ذاتي وبدأتُ رويدًا رويدًا أمحي الآثار المتبقية منه. لكن في ذلك اليوم لا أدري لماذا أصابتني صاعقة من الذكريات وأحرقت روحي فشعرت بالضعف الذي قاومته زمنًا طويلًا.

أمضيت ذلك اليوم في غرفتي وقد أغلقت الباب على نفسي. كنت -رغم معرفتي بأنّ مروان هو مفتاح الأمل الذي بقي دومًا بجانبي- أشعر بأنّني أنسحب من تلك الحياة التي رسمها لي. عندما أكون في تلك الحالة أشعر بأنّني قد هربت من سجنٍ لأختبئ في سجنٍ أكبر. قضبان من الندم تحيط بي، وقضبان من الغضب، وتلك التي تشعرني بالخجل، فما استطعت يومًا أن أبادله الحب الذي يحيطني به من كلّ اتجاه. ولكثرة ما كان حنونًا ومتفهّمًا جعلني دومًا أشعر بالذنب تجاه تلك المشاعر النبيلة التي ربّما لم أستحقّها أبدًا.

وتمضي بي الذكريات في أفق الليل..
تحملني إلى مساحات أبعد من المدى..
أغمض عينيّ وأغفو
فتوقظني المشاعر من غفوتي
لأراك بين السطور..

وكأنّني أنبش عنك بين الحروف!
لماذا تقتحم أفكاري؟
لماذا تخترق جدراني؟
أراك من خلف السحاب مبتسمًا
تمدّ إليّ ذراعيك منتظرًا
وتقول لي: «تعالي يا حبيبتي، تعالي»..
كم أشتاق إلى أيامٍ تجمعنا!
كم أشتاق إلى ذلك الشارع وتلك النافذة!
أشتاق إلى عينيك وابتسامتك..
أشتاق إلى صباح كنت فيه الشمس
ومساء كنت فيه القمر..
أحنّ إلى كلّ لحظةٍ جمعتنا..
حتى الألم صرت أشتاق إليه!
فمهما كان موجعًا، لكنّك جزء منه..
لم تكن يومًا قصّةً، بل كنت الكتاب..
لم تكن يومًا مرحلة، بل كنت الحياة..
لم تكن يومًا رجلاً عاديًّا، بل كنت الرجال كلّهم.

مضت أيامٌ قلّ فيها الكلام ولم أشعر برغبةٍ في التحدّث إلى أيّ أحد. حتى أحلام كانت تأتي إلى غرفتي وتقف عند الباب كأنّها تنتظر إشارة منّي لتعانقني، لكنّني لم أكن أرغب في أن تراني حزينة لئلّا تتألم معي.

قرّرت أن أبتعد بعض الوقت. أخبرت مروان بأنّني في حاجة إلى البقاء وحدي وقد حجزت غرفة في فندق لأكون فيها بعيدًا عنهما. لم يكن صعبًا أن يقابل طلبي بالموافقة، فهو يعلم بأنّني سأعود إليهما كما عدت دومًا.

أمضيت ليلتي في السرير محدّقة في تلك الجدران التي تحيط بي من كلّ جانب. لم تكن جدران الغرفة تزعجني، بل تلك التي تحيط بعقلي وتمنعه التفكير في أمور أخرى غير «زياد».

أخذت أبكي كما لو كان البكاء زائرًا قد غاب عنّي بعض الوقت. لا أعلم لماذا تعود تلك القصّة إلى ذاكرتي كلّما حاولت الهروب منها! ربّما لأنّها لم تنتهِ يومًا وبقيتْ معلّقةً بين سطور الكتاب، وما أصعب القصص التي لا تنتهي!

كنت أفكّر في كلمات حياة. «لقد تزوج»! هل يمكن أن أكون ضعيفة إلى هذا الحد؟ لماذا أزعجتني فكرة زواجه؟ ألست أنا مَن رفضت العودة إليه وفضّلت الفراق؟ أم ربّما كنت أرغب في أن أراه متألّمًا سنواتٍ طويلة وأن يبقى وحيدًا ليشعر بألمي وما خلّفه من دمارٍ حين تخلّى عنّي في أحد الأيام؟ ربّما كان الغضب الذي يملأ قلبي ما زال يتحكّم بأحاسيسي وما زالت آثار كأس الألم والخيانة الذي تجرّعته تعيش في روحي وعقلي. لكن لماذا

تغيّرت ملامحه كما قالت حياة؟ هل تألّم فعلًا حين رحلت إلى هذا الحدّ؟ هل أحسّ بحجم المصيبة التي ألمّت بي؟ هل تذوّق طعم الانكسار الذي تذوّقته مرارًا معه؟

بقيت تلك الأفكار تدور في رأسي دون أن أعرف كيف أوقفها. شعرت بحالة من الضياع والأسى. شعرت بالحنين والشوق إليه، أشتاق إلى عينيه ورائحته، أشتاق إلى صوته وضحكاته، أشتاق إلى جنونه. أشتاق حتى إلى نفسي التي فقدتها وروحي التي أهديته يومًا فمزّقها وأعادها لي مهترئة لا يمكن إصلاحها.

وبينما كنت غارقة في بحر من الذكريات، بدأت أسمع صوت زخّات المطر على النافذة وبدأ المطر يهطل غزيرًا رغم أنّنا في شهر نيسان، إلّا أنّه كان مباغتًا، كأنّ السماء ترسلُ إليّ رسالة مفادها أنّها تتألم مثلي وتشعر بي! كأنّ الكون في تلك اللحظة قد تحوّل إلى بساط سحريٍّ ليأخذني معه في زيارةٍ إلى ذلك الشارع.

أعاد صوت المطر إليّ ذكريات سنواتٍ طويلة في الماضي. تذكّرت حين كنت أتمشّى في أحد الأيام وكان الطقس غائمًا وأصوات الرعد تثير في قلبي حالة من الرعب. كنتُ عائدة من المدرسة ومروري بجانب بيته لم يكن مقصودًا، فهذا الطريق الوحيد الذي يؤدّي إلى بيتي. لا أنكر أنّني كنت أتمنّى أن أراه في كلّ يوم وأنّ خطواتي -عند وصولي إلى ذلك الشارع- تصبح بطيئة جدًّا كأنّني أحاول أن أطيل الوقت على أمل أن يطلّ عليّ من نافذة بيته.

تذكّرت كيف هطل المطر بغزارة في لحظة مجنونة، فأسرع زياد ليغلق نافذة البيت ورآني هناك أختبئ تحت شرفة أحد البيوت أنتظر أن تهدأ العاصفة لأكمل طريقي. لم أره في تلك اللحظة وقد وضعت حقيبتي المدرسيّة على رأسي، لكنّ غزارة المطر كانت أقوى منّي ومنها. سمعت صوتًا ينادي: «حنين، حنين، تعالي بسرعة». إنّه صوت زياد! ركضت بسرعةٍ في اتجاه مدخل المبنى وصعدت الدرج بسرعة، لا أدري في تلك اللحظة إن كان تسارع خطواتي شوقًا إلى لقائه أم خوفًا من ذلك اللقاء.

فتح لي الباب، كان ممسكًا بمنشفة كبيرةٍ لفّني بها وقال لي: «ماذا تفعلين هناك؟ ستمرضين».

بدأ جسدي يرتجف بقوةٍ شديدةٍ، فأحاطني بذراعيه وضمّني بقوةٍ قائلًا: «هل جننتِ؟ تعالي لأدفئك».

لا أدري كم مرّ من الوقت، لكنّني كنت أرغب في أن يستمرّ أعوامًا وأن لا ينتهي أبدًا.

«تعالي اجلسي، سأحضر لك كوبًا من الشاي».

غاب زياد بضعة دقائق وعاد حاملاً كوب الشاي الدافئ و(تيشيرت) أبيض اللون، قال: «خذي، البسي هذا ودعيني أجفّف ملابسك». شعرتُ بالارتباك وهممت بالخروج من بيته متلعثمة: «يجب أن أعود إلى البيت»، لكنّه أمسك بذراعي وقال هامسًا: «لا تذهبي، ابقي معي بعض الوقت حتى تهدأ العاصفة».

كنتُ في ذلك الوقت في السابعة عشرة من عمري وقد تصارعت في داخلي مشاعر الخجل والرهبة والفضول، فقلت معتذرة: «لا أستطيع، أمي ستقلق إن تأخّرت».

بدا زياد حنونًا جدًّا في تلك اللحظة، كنت أشعر باهتمامه الكبير وحرصه الشديد على الاعتناء بي، وفي الوقت نفسه أرى شعلةً تضيء في عينيه كلّما نظر إليّ، كنت أشعر بشيءٍ ما لم أفهمه، لكنّه كان مربكًا جدًّا بالنسبة إليّ.

ارتجف جسدي الضعيف من جديد، فانتهز زياد هذه الفرصة ليقنعني بالبقاء قائلًا: «ستمرضين يا حنين، لماذا أنت عنيدة؟ هيّا، أبدلي ثيابك ودعيني أجفّفها لك». قال ذلك بنبرةٍ صارمةٍ كأنّه يعلن لي في تلك اللحظة أنّ عليّ الاستسلام والانصياع لكلّ ما يقوله دون اعتراض مهما كان الثمن!

لبست الـ(تيشيرت) الذي أحضره لي، كان كبيرًا فبدا فستانًا، فزياد أطول منّي بكثير ويكبرني حجمًا وعمرًا.

أحضر مكواةً وبدأ بتجفيف ملابسي، شعرت بالخجل وطلبت أن أقوم بهذا العمل بنفسي، فنظر إليّ نظرةً معاتبةً وقال لي: «لمَ تكثرين الكلام؟ قلتُ اجلسي وأنا سأقوم بذلك».

كانت المرة الثانية التي يلقي عليّ بالتوجيهات وأنصاع له دون اعتراض.

جلست أشرب الشاي الذي أحضره. عمّت حالة من الصمت المريب. كنت أشعر بأعلى درجات الخجل، تلك الدرجة التي تشعر فيها بأنّك مقيَّدٌ،

فلا قدرة لك على التحدّث أو الحركة، وكان منشغلًا بتجفيف ملابسي، يختلس نظرات سريعة إليّ فيراني في تلك الحالة ويبتسم.

بعد مرور بضع دقائق جلس بجابني، وبحركة غير إراديّة أمسكت طرف الـ(تيشيرت) وشددته في محاولة منّي لأغطي تفاصيل جسدي الواضحة.

وضع زياد يده على كتفي؛ أصابتني صاعقة كهربائيّة، ارتبكت ورجفت، فقال ضاحكًا: «لا تخافي. ما بك؟»، ورفع بيده رأسي كأنّه يطالبني بالتمعّن في عينيه ونظراته. رأيت ابتسامته الرقيقة.

قال لي: «لا أعلم ما السرّ فيكِ؟ لماذا أشعر تجاهك بالمسؤوليّة كأنّك ابنتي؟»؛ ضحكت وقلت: «لا أريد أن أكون ابنتك». لا أعلم كيف خرجت منّي تلك الكلمات دون إرادة، ثمّ حاولت أن أتدارك خطئي؛ فقلت: «أقصد أنّك لستَ كبيرًا بالسنّ إلى هذا الحدّ!». ربّت على أنفي بحركة لطيفةٍ وقال: «وأنت لست صغيرة إلى هذا الحد».

جلسنا بضع لحظاتٍ في حالة صمتٍ نتبادل تلك النظرات الحارقة التي جرفتنا. طبع قبلةً على شفتيّ، كانت الأولى في حياتي، ثمّ بدأ يتلمّس جبيني ووجهي بأصابعه الناعمة وأنا في حالة من الاستسلام الكامل، فوضع يديه على وجنتيّ، اقترب منّي وقبّلني من جديد. كانت القبلة هذه المرة طويلة ورائعة جدًّا. أغمضت عينيّ واستسلمت لتلك الأحاسيس التي كانت تزورني أول مرة. كنت أشعر بشفتيه الناعمتين تتنقّل من مكانٍ إلى مكان.

شعرت بتلك القبل الخفيفة التي يطبعها سلاسلَ يلفّها حولي، فيقيّدني ويعلن أنّه قد امتلكني للأبد.

بدأ صوت أنفاسه يعلو، وبدأت أضيع فيه أكثر. همس لي: «عليك أن تذهبي الآن، أرجوك اذهبي!».

ليس غريبًا أن يعيد صوت المطر ذلك اليوم في ذاكرتي، ففي كلّ يوم تمرّ أشياء توقظ في قلبي الذكريات وتعيدني إلى ذلك الزمن، حين كنت طفلة وكان زياد رجلي الأوحد.

لا أدري لماذا أستمرُّ في خوض تلك المعارك الضروس بين عقلي وقلبي وأنا أعلم أنّني سأخسر في كلّ مواجهةٍ لأنّ حجم الألم يزداد عمقًا كلّما تمعّنت في تفاصيله!

لقد مات قلبي طفلاً وعاش حبًّا حُكِم عليه بالسجن بين جدران قلبي الضعيف للأبد، ذلك القلب الذي كلّما تسارعت نبضاته أوشك على التوقّف، كلّما تشبّث بالأمل سقط إلى هاوية البؤس والألم وكلّما قرّر أن ينتصر في حربهِ تخونه ذاكرة الوجع فتبدأ بإرسال تلك الصور المشوّهة للفارس الذي ما جاء يومًا على ظهر الفرس ليحمل عروسه ويمضي، بل ليدوس أحلامها ويمضي.

وعقلي يعيش واقعًا ربّما يكون لغيره حلمًا صعب المنال، فحياتي مع مروان بيضاء، لا بقع سوداء تشوّهها ولا صراعات منزليّة تزعجها، لكنّها – لكثرة هدوئها– جعلتني أفقد تلك اللهفة إلى ما سيأتي في الغد.

ورغم معرفتي ويقيني بأنّ قصّتي مع زياد قد انتهت قبل أن تبدأ، إلّا أنّ شيئًا ما في داخلي يبقى متمسّكًا بها. عندما يطرق بابي شعوري بالخجل والندم أبحث لنفسي عن حجّةٍ لأبقيها معي وأقول لنفسي: كيف سأتذوّق طعم الفرح وأتلذّذ به إن كنت لم أتجرّع الألم؟

فهل هو الألم فقط ما يجعلني متمسّكةً بحبال قصةٍ عشتها يومًا؟ أم أنّه الشوق إلى أن أعيشها رغم ما فيها من ألم؟

لقد طرحت هذا السؤال يومًا على مروان في إحدى جلساتنا، فنظر إليّ بحزنٍ كأنّ وقع السؤال زلزل فيه حزنًا مدفونًا في داخله وأعاد إلى ذاكرته أحداثًا لم ينسها، بل قد اتخذ منها حجّةً أو قد دفعت به ليصبح طبيبًا نفسيًّا يستمع إلى قصص مرضاه ويبحث لهم عن سبلٍ جديدة لتخطّي أقسى أنواع الألم.

لا يذكر مروان من سنوات طفولته شيئًا سوى أصوات الصراخ والبكاء ووقع ارتطام الصحون الزجاجيّة على الأرض. لم يكن مثل باقي الأطفال ينتظر عودة والده من العمل كلّ يوم، لأنّ أبيه كان في تلك اللحظات يفتح باب المنزل مكفهرّ الوجه، عابسًا وغاضبًا لأسباب لم يفهمها أحد سواه، فكان مروان يهرب إلى غرفته، يجلس في زاوية بعيدة ويحاول أن يجد أيّ شيءٍ يغطّي به نفسه ظنًّا منه أنّ أحدًا لن يراه. وبعد مضيّ دقائق يبدأ والده بالصراخ لأتفه الأسباب، وكلّما مرّ الوقت يزداد الغضب شدّةً حتى تصبح

أصوات الضرب جليّةً ممزوجة بدموع والدته التي تحاول أن تكتم ألمها وصوت بكائها كي لا يصل عبر الجدران إلى غرفة مروان.

لم تسلب تلك السنوات التي عاشها مروان طفولته فقط، بل حكمت عليه باليتم قبل الأوان وخلقت في داخله مشاعر من الألم والغضب والخوف.

كانت الأوقات التي يمضيها مع والدته، تلك الدقائق التي يكون فيها معها، تعيد إلى نفسه الشعور بالطمأنينة، فتعيد كلماتها ترميم قلبه وعقله وتخلق منه إنسانًا آخر.

قالت له يومًا: «عندما تكبر، لا أريدك أن تشبه أحدًا. أريدك أن تكون طيّبًا بأخلاقك وأن تحبّ بعقلك لا بقلبك، وتحكم بقلبك لا بعقلك. أريدك أن تكون دواءً لمَن يتألّم وفرحًا لمَن يحزن. وعندما تعود إلى فراشك كلّ ليلة، عليكَ أن تتذكّر أنّ الله عادلٌ في حكمه ولن يترك ظالمًا دون عقاب، فإيّاك أن تظلم!».

تلك المأساة التي عاشها مروان في طفولته خلقت منه هذا الإنسان الرائع في كلّ شيء.

وعندما طرحت عليه ذلك السؤال قال لي: «الألم حروف اجتمعت في زمن واحد وارتسمت على هيئة شعورٍ يحاول أن يخرج منتصرًا في حربه، فيستخدم أنواع الأسلحة كلّها التي يدمّر بها خصمه، يستولي بها على أجسدانا، يضعفنا ويقتلنا بصمت».

ثمّ سألني:

- إن طلبت منكِ أن تصفي لي الألم أو أن تجسّديه بصورة إنسان أو حيوان فكيف ترينه؟

أجبته:

- أراه ذئبًا.
- وهل تخافين الذئاب؟
- نعم، مَن منّا لا يخاف الذئاب؟
- هل رأيت ذئبًا من قبل؟
- لا، ولكن لو رأيته لما كنت هنا الآن. أليس الذئب حيوان مفترس ينقضّ علينا ليأكلنا؟
- لكن، ألن يهرب الذئب إن أشعلت في وجهه النار؟
- نعم.

لم أكن أفهم حتى ذلك الوقت ما كان يقصد بكلامه. قال لي:

- رغم خوفك من ذلك الذئب الذي ظننتِ أنّه سيأكلك، قد تجدين نجاتك في عود ثقاب صغير. الحيوان الذي يخيفك لكونه مفترسًا يخاف من عودٍ صغيرٍ لا يتجاوز حجمه حجمَ أصبعك الصغير. لا تخافي يا حنين، فالألم لا ينتصر دائمًا رغم قوّته. وفي كلّ معركةٍ يخوضها لا بدّ من سبيل لهزيمته. عليك فقط التمسّك بذلك العود الصغير.

لا أنكر أنّ كلماته كانت دائمًا تُعيد إليّ الأمل بأنّ غدًا ربّما لن يكون أجمل، بل سيكون أسهل. فلا أظنّ أنّ حياةً أعيشها دون زياد ستكون جميلة، لكنّ الصراع الذي أعيشه كلّ يومٍ يحطّمني ويكسرني، وعندما أكون في أقسى درجات بؤسي أبحث عن أيّ سببٍ يعيد إليّ الحياة. أيّ حياة!

كانت الأيام تمرّ سريعة، لكن فجوات قلبي تزداد اتساعًا كأنّني أمشي على براكينٍ من المشاعر الخامدة. أحيانًا تمضي شهورٌ باردة أشعر فيها بحالةٍ من السلام الداخليّ، فلا ذكريات فيها ولا صراعات أخوضها مع نفسي، وأحيانًا ينتهز الماضي فرصةً لينقضّ عليّ ويعبث بتلك البراكين الخامدة فيرسل إليّ رسائله على شكل ذبذبات لا يشعر بها أحد سواي، فتتأجّج حممهُ رويدًا رويدًا لتحترق روحي ببطءٍ شديد.

هل يمكن أن تكون ازدواجيّة المشاعر مرضًا يصيبنا؟ هل هي حالة مؤقّتة تنتهي في يومٍ من الأيام؟ وهل يكون التمسّك بالماضي رغم الألم الملتصق به نوعًا من الجنون؟ أم هو الندم؟

فكم من قرارٍ نتّخذه في لحظةٍ يسيطر علينا فيها الغضب وبعد مرور الوقت نشعر بالندم! وكم من طريقٍ نرسمه لحياتنا في لحظة ضعفٍ وعندما نصل إلى نهايته نشعر بالندم! وكم من قصصٍ نكتبها في لحظات طيشٍ وتتلاشى حروفها عندما يهطل المطر، فلا يبقى منها شيء سوى بضع صفحاتٍ بيضاء خالية من المشاعر!

صفحات أقلّبها في كلّ يومٍ، أبحث بين ثناياها عن أملٍ أتمسّك به، عن نهاياتٍ لا أعرفها ولا أفهمهما، لكنّها تبقى أبوابًا موصدةً لا أستطيع أن أعبر من خلالها إلى عالمٍ آخر. وتلك الطفلة التي أراها تجلس على حافّة الطريق تنظر إليّ كأنّها تناديني كي أعود، وكلّما خطوت بضع خطواتٍ إليها أراها تبتعد هاربةً منّي، فأشعر بحالةٍ من الضياع والتشتّت ولا أدري إن كان عليّ أن أتابع خطواتي أو أعود إلى الوراء.

لكن رغم التناقض الذي أعيشه كنت أشعر بأنّ شيئًا ما سيحدث، وكنت أتمسّك بذلك الإحساس كأنّه دوائي من مرضٍ أصابني في أحد الأيام، مرض اسمه «زياد».

الفصل الثاني

في السابع من كانون الأول/ ديسمبر **2011**، كنت قد بدأت عملي في البنك قبل عدة شهور. كم كان قرار العودة إلى العمل مريحًا في ذلك الوقت! فلم أعد أجلس ساعاتٍ وحيدةً أراقب عقارب الساعة وهي تمضي فتأخذني في لحظة ضعفٍ إلى ذلك العالم الآخر الذي بدأ يتلاشى ظلُّه من حياتي. لم أعد أكتب في لحظات ألمي تلك الخربشات التي تخرج منّي على هيئة حروفٍ تتشكّل دون وعي لترسم لي أحداث قصصٍ عشتها وأخرى لم أعشها بعد، فأشعر بالشوق يجرفني إلى الماضي.

في ذلك الوقت كنت أشعر بأنّ الضوضاء التي عشتها قد هدأت، كأنّ الأحداث في حياتي وجدت لها أماكن جديدة على رفوف الأيام، فلا يُزاحِم بعضُها بعضًا ولا تتنافس في أيٍّ منها الأقوى وأيٍّ منها سينتصر عليّ.

بينما كنت منهمكةً في عملي جاءني اتصالٌ هاتفيّ من المدرسة، ذلك الاتصال الذي يزلزل مشاعرك لحظةً قبل أن تصحو وتحاول أن تتدارك هول الحدث. رنّ الهاتف فأجبت بسرعةٍ بصوتٍ مرتجفٍ: «ما بها أحلام؟».

جاءني صوت طبيب المدرسة: «صباح الخير. هل أنت السيّدة حنين؟».

لا أعلم لماذا يبدؤون حديثهم دائمًا بهذه البرودة والبطء كأنّهم لا يعلمون كم ثقيلة تلك الثواني على أذن الأم التي تنتظر أن تسمع خبرًا يطمئنها!

أجبته مرتجفةً متلعثمة بحروفي: «نعم، نعم أنا حنين».

لا أذكر تمامًا تلك المقدّمة التي بدأ بها حديثه، لكنّني فهمت أنّ أحلام قد سقطت أثناء اللعب، وربّما تكون رجلها قد كُسِرت. صرخت بما فيّ من مشاعر الأمومة: «سآتي في الحال!».

خرجت مسرعةً إلى الشارع أبحث عن سيارة أجرة تقلني بسرعة إلى مدرسة أحلام، وقد نسيت تمامًا أنّ سيارتي مركونة في المواقف المخصّصة للموظفين.

كان الطقس ماطرًا وازدحام السيارات في الطريق يجعل من وقت الوصول إلى المدرسة طويلاً جدًّا. كنت أرتجف وأنظر إلى الشارع، فأرى بعض المارة يركضون في كلّ اتجاه محاولين تفادي غزارة المطر الذي بدأ يهطل بصورة جنونيّة، وأصحاب المحلات التجاريّة يقومون بإدخال بعض المعروضات إلى الداخل لتفادي انجرافها مع سيول المياه التي بدأت تزداد بشكل واضح.

في تلك الدقائق التي بدت كأنّها سنوات من القلق، نسيت كلّ شيء، حتى إنّ اسم المدرسة غاب عن ذهني عندما طلبت من السائق أن ينطلق بسرعة. سألني: «إلى أين؟»، نظرت إليه أحاول أن أتمالك نفسي من هول القلق الذي أصابني وأستجمع ما بقي من ذاكرتي لأتذكّر بعد ثوانٍ ليست بالقليلة اسم المدرسة.

كان يقود السيارة في ذلك الطريق، أوقفها عند إحدى الإشارات الضوئيّة الحمراء. كنت أراقب ساعتي كأنّني إن عددت الثواني سيُفتح الطريق بسرعةٍ أكبر، أو كأنّ الكون سيشعر بقلقي ويسرّع الأحداث لأصل إلى هناك.

في ذلك الصباح كنت أشعر بانقباضٍ وقلق شديدَين، فليس غريبًا أن تحدث تلك الأحداث السيئة كلّها وتقلب حياتي كلّما هطل المطر.

كنت أنظر إلى السماء معاتبةً وكأنّها قد تعمّدت إسقاط ابنتي. شعرت بأنّ قطرات المطر تنظر إليّ مستهزئةً ضاحكةً تراقب انفعالاتي، أحسست بأنّ حالةً من الجنون تصيبني فأردت أن أبعد عنّي تلك الأفكار المجنونة التي بدأت تزعجني. صرت أنظر حولي وأراقب السيارات التي تسير ببطءٍ شديد كأنّها تمرّ من جانبي لتلقي عليّ التحيّة وتمضي في طريقها.

لم أكن أعرف أنّ دقيقة واحدة، لا بل لحظة واحدة كانت كفيلة بتغيير حياتي وانتقالي إلى فصلٍ جديدٍ ما ظننته آتيًا في يومٍ من الأيام.

مرّت تلك السيارة السوداء وتوقّف عند مرورها الزمن، كأنّ المشهد قد تحوّل إلى خاصيّة التصوير البطيء. مرّت بجانبي بطيئةً جدًا لتقع عيناي على سائقها وإذ به «زياد»!

لا أدري كيف يصبح القدر قاسيًا إلى هذا الحدّ، فيصيب قلبي بالانكسار مرّتين!

كيف لم يكتفِ بمصيبتي الأولى ليجهز عليّ بمصيبة أكبر؟ كيف لا يكتفي من تجرّع ألمي فيرسل إليّ جرحًا أكبر كأنّه يتلذّذ بتعذيبي؟ كيف

ينقسم قلبي إلى شظايا بقوّة إعصارٍ مدوٍّ، بقوة درجات ريختر ينشطر نصفين وكأنّ حرارة داخليّةً قد أذابت الخيوط كلّها التي أغلقت بها فجواته النازفة شوقًا وألمًا. ذلك القلب الذي أحبّ «زياد» يومًا، قُتِل على يده، تألّم يوم فراقه، عاش طفولته كهلاً وانسابت ذكرياته واختفت تحت ركام الصخور. القلب نفسه الذي يصرخ خوفًا على صغيرته ويسابق الزمن للوصول إليها يقف في تلك اللحظة عاجزًا عن تفادي أصعب أنواع المشاعر! إنّها لحظة اللقاء التي لم أحسب لها حسابًا.

صرت أشعر بأنّ الوقت أصبح عدوًّا يفتك بي بشراسة لا طاقة لي على مقاومتها. تمنّيت لو أنّه توقّف عند تلك اللحظة لأجد نفسي بين أحضان زياد، لألتصق به كذلك المقود الذي يلفّه بيديه، لأصبح جزءًا من تلك الصورة التي تمرّ بجانبي وتقتلني بهدوء. وددت لو يمرّ سريعًا ليمضي زياد في طريقه فلا تلتصق صورته في خيالي ولا تعود مشاعري إلى الحياة فأبدأ من جديد رحلة عذاب طويلةٍ كنت قد أنهيتها منذ أن كسرت قلمي ومنعت مشاعري من التساقط سهوًا على صفحات دفتر خواطري.

بدت تلك اللحظة عمرًا يمضي أمامي، كأنّني أجلس في قطارٍ سريعٍ يحملني من محطةٍ إلى أخرى، يرميني بين أرصفة الذكريات والصور التي بدأت تتلاحق في عقلي. انتفضت مشاعر لا أعلم أين كانت تختبىء في داخلي، كأنّها كانت تتأهّب منذ زمنٍ لهذه اللحظة. نيرانٌ لم أستطع إخمادها كانت تشتعل في روحي وتشعرني بالظمأ، تشعرني بالوحدة وبأن الزمن قد

انقلب في تلك اللحظة، كم رغبت في الصراخ في وجه القدر! كيف يصبح قاسيًا إلى هذا الحدّ؟

بدا لي أنّ شيئًا ما قد تغيّر، كأنّني تحوّلت منذ تلك اللحظة إلى شخصٍ آخر لا أعرفه. هل يمكن للشوق أن يمسح ذاكرة الأيام وكأنّها ما كانت أبدًا؟ هل يمكن أن يمسح ذاكرة الألم كأنّني لم أعشه يومًا؟ هل يمكن أن تصبح صرخات قلبي أشدّ وطأةً وأعظم قوّةً من صوت عقلي الذي بدا خافتًا في محاولاتٍ بائسة منه لأن أعود من ذلك الفضاء الذي أطير إليه دون وعيٍ أو إرادة؟

سمعت صوت السائق يخبرني بأنّنا قد وصلنا. لم أعد أذكر وجهتي، فقد تلاشت أفكاري كلّها في لحظة. فتحت باب السيارة رغم تجمّد أطرافي أحاول أن أمضي بعيدًا عن عاصفة الألم ورياح الشوق وغيوم الذكريات التي تلبّدت في عقلي. بعد عدة دقائق بدت طويلة جدًّا وصلت إلى عيادة المدرسة ورأيت أحلام هناك تنتظر بلهفةٍ وصولي، وحين رأتني بدأت بالبكاء فحلمتها وضممتها، وما هي إلّا دقائق حتى وصل مروان وخرجنا معًا إلى المستشفى.

عندما دخلت أحلام إلى غرفة التصوير برفقة الطبيب، أحسست بحالة من الانهيار التامّ، جلست على مقعدٍ بعيد، أسندت رأسي إلى الحائط وأغمضت عينيّ. رغم الضجيج حولي شعرت بحالة من السكون المخيف،

كأنّني أعيش في كوكب آخر، كنت أشعر بأنّني لا أنتمي إلى ذلك المكان الذي أعيش فيه، كأنّني غدوت بلا روح!

عندما خرج مروان من الغرفة برفقة أحلام، كانت ملامح الهدوء باديةً في وجهه بعد أن طمأنه الطبيب أنّها إصابة خفيفة وليس هناك داعٍ للقلق. مشى بفرحٍ في اتجاهي وقال لي: «لنعد إلى البيت».

في تلك الليلة بدت محاولات النوم مستحيلة بالنسبة إليّ. كانت صورة زياد تطاردني كأنّها شبح من الماضي أضاع طريقه وبدأ بملاحقتي. كنت أشعر بأنّ لقاءنا لم يكن صدفة، بل إنّ القدر رسم لنا ذلك الطريق وجعل من الأحداث التي مرّت طريقة مثلى ليتقاطع طريقانا في تلك اللحظة. شعرت أول مرة بصوتٍ يناديني من البعيد: «انهضي من سباتك الطويل يا حنين، كوني أنتِ مرةً واحدة. حطِّمي ذلك القناع الذي تلبسينه واسمعي صوت قلبك مَرةً».

بعد صراعٍ طويل مع القلق، التردّد والخوف، أرسلت إلى زياد عبر إيميله الخاص رسالةً فارغة تخلو حتى من العنوان.

في الصباح، بعد خروج مروان إلى العيادة، أعددت كوبًا من القهوة وفتحت حاسوبي لأجد رسالة من زياد في صندوق رسائلي. لا أنكر أنّني شعرت ببعض الخوف ممزوجًا بالسعادة والقلق. فرغم رغبتي في أن أسمع صوته وأراه، إلّا أنّني لم أتوقّع أن يرسل إليّ ردًّا بهذه السرعة! قرأت:

«هل يمكن أن تولد حنين مرتين؟ يمكنني أن أملأ صفحاتٍ من المشاعر وأرسلها لك كي أصف هذا الإحساس الذي أصابني عندما رأيت اسمك في الشاشة.. كأنّني أتنفّس أول مرة منذ سنوات! يمكنني أن أرسل لك كلماتٍ لم أجرؤ على قولها يومًا ولم أنطق بحروفها من قبل. لكن قبل أن تسأليني أسئلة سأمضي عمري في الإجابة عنها، فكّري قليلاً في سؤالٍ واحد لا أريد إجابة عن غيره: هل عدتِ لي؟».

كنت أقرأ كلماته بلهفةٍ لم أشعر بها منذ مدةٍ طويلة، وكلّما أنهيت قراءتها قرأتُها من جديد. كنت أبتسم، أرتجف وأشعر بسعادةٍ ما ظننت أنّني سأشعر بها يومًا. كتبت له:

«لا أدري إن عدت إليك أم أنّني لم أفترق عنك يومًا. لا أدري إن كنت وجدتك أم أنّك اخترت لحظة اللقاء باحترافٍ فأخذتني على غفلةٍ في أعظم لحظات ضعفي. ربّما افترقنا وربّما تركتُ قلبي على بعد خطواتٍ منك لتتعثّر يومًا ما به فينهض من سباته العميق. ربّما عندما يولد الحنين يمحي ما كان قبله من نسيان.. ولكن! كيف تولد حنين مرتين؟».

أجاب:

«لقد رزقت بطفلةٍ أسميتها «حنين». لا تطيلي الحديث من خلف الشاشة. أنا في انتظارك، تعالي الآن».

بإجابة مختصَرة وكلمات معدودة فتح ذلك الباب على مصراعيه، الباب الذي كان موصدًا سنوات طويلة ولم أجرؤ على العبور من خلاله إلى ذلك

الحلم البعيد. وأنا أعلم أنّني لو مشيت خطوة واحدة فلن أستطيع العودة إلى الوراء أبدًا، لكنّ ذلك الشوق الذي كان يجرفني إليه سلبني إرادتي وعقلي، وذلك الحب الذي حاولت أن أقتله مرارًا بدا قويًّا في تلك اللحظة، إلّا أنّ هناك شيئًا ما لم أفهمه، فالطريقة التي يتحدّث بها زياد ويدعوني إلى اللقاء لا تخلو من الغرابة! فأجبته:

«بانتظاري! أين؟».

بعد لحظات أرسل إليّ رقم هاتفه كأنّه يطلب منّي الاتصال به ليجيبني عن سؤالي.

في تلك اللحظة أصابني الرعب، فحالة الاستسلام التي لطالما شعرت بها مع زياد بدأت تخيفني، ولا يمكن أن أعود إلى الضعف نفسه من جديد.

بدأت أمشي بخطواتٍ مضطربة، أحاول أن أجد مخرجًا من تلك المصيبة التي وضعت نفسي فيها. بدأت أشعر بألمٍ في رأسي، ومع مرور الدقائق يزداد اضطرابي وقلقي.

هل كان ذلك خوفًا من اللقاء أم خوفًا من مجرّد سماع صوته؟ ربّما كان شوقًا لا أفهمه.

وبينما كنت في حالة صراعٍ مع الأفكار والمشاعر. أرسل إليّ رسالةً جديدة:

«حنين، تعالي الآن. أنا أسكن في المبنى المقابل لبيتك في الطابق الأول، الشقة رقم 7. كفاكِ حماقة وتردُّد. هيّا تعالي».

لا يمكن لأيّ كلماتٍ أن تصف حجم الصدمة التي ألمّت بي في تلك اللحظة، هل كان زياد قريبًا منّي إلى هذا الحدّ؟ هل يسكن في الشارع نفسه الذي أسكن فيه ويعرف بيتي؟ هل هذه صدفة؟ أم أنّه القدر؟ أم أنّ زياد قد أصبح في تلك اللحظة أقوى من القدر؟

تفصلنا بضعة أمتارٍ فقط، شارعٌ واحد وباب واحد! كأنّني عدت بالزمن على متن رحلة الماضي وشعرت بأنّني طفلة من جديد. تذكّرت حين كنت أبحث عن حجج لأخرج من بيتي وأمشي في طريقي نحو بيت زياد. اللهفة نفسها، الشوق نفسه والخوف نفسه.

بدأت أشعر بأنّ كلّ شيءٍ من حولي يتهاوى وأنّ حياتي التي أعيشها آيلةٌ إلى السقوط. ما هذا الجبروت الذي تمتلكه الكلمات! كيف لبضعة حروفٍ أن تعيد تشكيل الحياة؟ كيف لكلماتٍ لم تُنطق بعد وإنّما رُسمت من خلف شاشة حاسوبٍ أن تخترق قلبي وتخلخل توازني فتجعلني أشعر بانعدام الجاذبيّة كأنّني صرت أسبح في فضاءٍ من الأحاسيس والمشاعر!

لا يمكن أن يكون ما يحدث كلّه مجرّد صدفة. لا يمكن للزمن أن يعيد ترتيب أحداثه في لحظات ويغيّر جغرافية الأجساد ليصبح قلبه على بعد خطواتٍ منّي وتصبح روحي على حافّة الأنّهيار!

لم تكن تلك الطريقة التي كان يتحدّث بها زياد غريبة، فلطالما أحكم بسيطرته عليّ، وليس غريبًا أن يقلب حياتي ببضع كلماتٍ فأشعر بي سيجارةً

يشعلها ويدخّنها بشراهةٍ ويراقب احتراقها بمتعةٍ، وحين تتحوّل إلى بقايا رمادٍ بين يديه يُدرك أنّها تلاشت فيصيبه الندم لما اقترفت يداه.

لا أدري لماذا استيقظتْ في داخلي المشاعر كلّها التي ظننت أنّني قتلتها منذ أمدٍ طويل، شعرت بحالة من فوضى الأحاسيس تنقضّ عليّ وغدا جسدي ساحة معركةٍ بين صوت العقل ونبضات القلب التي فازت في النهاية أول مرة في معركتها وقادتني إلى بيت زياد.

أعلم أنّ ذهابي إلى بيته كان أكبر جريمةٍ وأعظم ذنبٍ اقترفته، وأنّ تلك الرسالة التي أرسلتها له كانت خيانة، حديثي معه خيانة، احتلال صورته مملكة عقلي خيانة واللقاء الذي جمعنا بتقلّباته كلّها وتأجّج تفاصيله كان الجريمة الأكبر والخيانة الأعظم التي حاولتْ أن تلتصق بي ولم تكفّ عن إرسال موجات من الإحساس بالذنب في طريقي، كأنّها تفرض عليّ حكمًا بالندم المؤبّد. لكنّني كنت على يقينٍ أيضًا بأنّ زيارتي تلك لم تكن سوى تكفيرٍ عن ذنبٍ اقترفته في حقّ قلبي، كانت الطريقة الوحيدة لأعيد ترتيب روحي بعد أن بقيتْ في حالة من الضياع الطويل، كأنّها قطعٌ متناثرة لأحجيّةٍ غاب عنها قطعةٌ أخيرة لا يمكن أن تكتمل الصورة دونها. فكيف يكون لقائي به خطيئة، وجريمة القتل التي اقترفتها في حقّ قلبي بريئة من الخطايا؟ كيف تكون لحظة ارتواء ظمأ الشوق خطيئة، وخناجر الحنين التي ما انفكت تدمّرني سنواتٍ بريئة؟ كيف يكون التصاق جسدَين في لحظة عشقٍ لا تتكرّر خطيئة، وجفاف المشاعر في صحراء الجسد تكون دومًا بريئة؟

هل اختلّ توازن الأبجديّة فاختزلت من الحروف كلماتٍ وأطلقت على المشاعر أحكامًا وأعادت تكوين الحياة فلوّنتها بالأسود القاتم؟ هل يُكتَب عليّ السجن بين قضبان الذنب لأنّني ثرتُ في أحد الأيام على قانون الطبيعة وأغلقت أبواب المنطق في عقلي ومشيت بخطواتٍ واثقة نحو ذلك الباب، حيث لا قيود فيه ولا أحكام مسبقة على قواعد العشق واللهفة؟

ذلك الباب الذي يشبه الباب الذي وقفتُ أمامه عدة مرات في الماضي، لكن هذه المرة كان لها طعم مختلف، كانت بنكهة لقاءٍ لا فراق. لقد كانت برائحة الياسمين الذي زيّن شرفة منزل زياد القديم.

حين وقفت هناك بدأت تتسرّب رائحة العطر نفسها، رائحة الجسد الذي أعاد تكويني وسلك جميع الطرق المؤدية إلى روحي. رائحة زياد وعطره الذي منه بدأتْ رحلتي في عالمٍ جديد اسمه «أنثى».

في تلك اللحظات غاب عنّي شعور القلق والتردّد والخوف، وحلّ مكانه شوقٌ ولهفة وحنين. كنت أودّ أن أخلع الباب من أمامي، أن أفتح طريقي إليه وأزيل الحواجز التي تبعدني عن لحظة لقائنا.

مع اقتراب خطواته من الباب بدأت رائحة العطر تزداد قوةً. فهمت أنّ زياد يقف في الجهة المقابلة لي كأنّه يستعدّ لتلك اللحظة، يسترق من الوقت بضع لحظاتٍ ليستعيد توازنه ويسيطر على التوتّر الذي أصابه وكأنّها المرة الأولى التي نلتقي بها.

لا أظنّ أنّ هناك كلماتٍ من بين ملايين الكلمات تستطيع أن تصف المشاعر والأحاسيس التي سيطرت علينا في تلك هذه اللحظة، عندما التقينا أول مرة بعد الفراق. عندما توقّفت عقارب الساعة وانشطرت الأرض نصفين. عندما انتفض الحب من تحت الركام وتحوّلت الأحاسيس إلى شلالات من المياه الدافئة. عندما نزفت خصلات شعري دموعًا واكتسى جسدي ثوبًا من الزهور. تلك اللحظة التي تبدّل فيها الكون، انقلب الزمن وانتصرت قوّة الجذب المغناطيسيّ؛ فتناثر كلّ شيءٍ من حولي وبقي زياد.

قبل أن أنطق بحرفٍ، عانقني وهمس لي: «لا تقولي شيئًا أرجوكِ. دعيني أتنفّس حبك لحظاتٍ».

مرّت الدقائق وحالة من الصمت لفّت المكان. لا شيء يُسمَع سوى أنفاسنا التي تتصاعد شهيقًا وزفيرًا. انهمرت دموعي في صمتٍ كأنّها تحاول أن تمسح الألم كلّه الذي أحسست به سنوات، وصوت زياد يهمس في أُذني: «آهٍ يا حنين»، دموعه تتساقط بدفءٍ على كتفي وقبلاته تُطبع على جسدي فتأخذني لأطير معه في فضاء جديد.

لا أدري كم من الوقت مرّ، لكنّ عاصفة المشاعر هبّت وجرفتنا معها إلى عالم من السحر. بدأنا نزور عواصمَ ومدنًا لم نزرها من قبل، نتذوّق طعم التوابل الشهيّة ونشرب من العشق كؤوسًا ونسكر بخمر الهوى والشوق.

بعد مرور ساعاتٍ من الغياب عن الواقع والتجرد من مشاعر الخوف والذنب. جلسنا على أريكةٍ بجانب نافذة مطلّة على الشارع. كم صدمتُ

حين رأيت شرفة غرفتي بوضوحٍ شديد! وقبل أن أطرح أيّ سؤال على زياد بدأ حديثه وبدوت كأنّني أسمعه أوّل مرّة. قال:

«هل تعرفين يا حنين. لم يعد حبي لك معركةً أخوضها، إنّما أصبح إحدى عاداتي اليوميّة، فاستسلمت له حتى صار جزءًا منّي كتوأمٍ سياميٍّ يلتصق بي. منذ أن أيقنت بأنّك صورة حيّة تعيش في تفاصيلي وأنّك أجزاء حكايتي كلّها. عندما صدّقت أنّك عنواني وطريقي فلا حياة لي من بعدك. في ذلك الوقت فقط صرت لا أشعر بالألم وإنّما بالشوق إلى لقاءٍ جديدٍ يجمعنا. ليس لنكمل حكاية لا يمكن أن تكتمل يومًا، بل لأعيش معك لحظاتٍ لم نعشها أبدًا. كنت أشعر بالمسؤوليّة وبقيت عقدة الذنب تلاحقني؛ فصرت أتوق إلى لحظة أعيشها معك لأعوّضك بها عن الظلم الذي اقترفته في حقك. لقد عشت معك ذلك الإحساس وعرفته جيدًا، الإحساس بأنّك لي، لكنّك لم تعيشيه أبدًا معي، أريدك أن تعيشي ذلك الحلم حين أقبّلك، بينما أهمس لك بين قبلة وأخرى: كم أحبّك يا حنين!

أريد أن أضيع في تفاصيلك، وعند كلّ محطةٍ أصل إليها أقول لك: إنّني بجنونٍ أحبّك يا حنين. أريدك أن تعيشي لحظات الانتصار التي عشتها مرارًا معك وسلبتُ منك حقّك فيها. أريدك أن تشعري بأنّك قد ملكتني أول مرة».

كنت أشعر بحزنٍ يكاد يقتلني، أحاول عبثًا إخفاء دموعي وألمي. فيقول لي:

«لا تبكي يا حنين. فذنب الفراق ما كان يومًا ذنبك وإنّما كانت خطيئتي التي اقترفتها في حقّ قلبينا، بطيشي حكمت على طفلنا الذي لم يولد بالموت الأكيد. لا تحزني لأنّ القصة التي كتبناها يومًا أحرقتُ صفحاتها بطيشٍ، والحب الذي طرق بابي يومًا نهرته وألقيتُ به إلى التهلكة. لكن برغم الذنوب التي اقترفناها بالقتل، الظلم أو الإنكار، لا بدّ للحق أن ينتصر يومًا، فها هو صوت العشق الذي كبّلناه وكممناه في قلوبنا يخرج منتصرًا علينا. لم يكن اختياري هذا البيت عبثًا، فقد عقدت العزم أن أعيش تفاصيل الحكاية كلّها، وأن أترك الألم الذي سكبته في كؤوسٍ وقدّمته لك يتسرّب إلى قلبي. أريد أن أعيش تلك اللحظة التي وقفتِ فيها تحت نافذة بيتي، فصرت أقف وأراقبك كلّ صباح وأتألّم كلّما لمحتك مبتعدة حاملة معك أحلامي وشوقي. هل تعرفين كم مرة صعدت الدرجات ووقفت أمام باب بيتك لأسمع صوتك من خلف الجدران؟ هل تعرفين كم مرةً جلست في الحديقة أراقبك وأنت تلعبين مع ابنتك؟ هل تعرفين كم مرة رأيتك تحدّثين النجوم وترسلين إليّ معها سلامًا وشوقًا؟ كنت أشعر بكلّ شيء كأنّنا لم نفترق يومًا، وفي كلّ مرةً أرسل إليك سلامي مع النجوم نفسها. كم كتبت لك رسائلَ لم أرسلها! صرت أجمعها في صندوقٍ لعلّنا نلتقي يومًا ما فأعطيك إيّاها. كنت أشتري لك الهدايا في كلّ مناسبة وأخبّئها على أمل أن أهديكِ إيّاها يومًا ما».

كنتُ أنظر إليه وأحاول أن أفهم الصور المتلاحقة التي ظلّ يرسلها في كلماته، وتلك التفاصيل التي أسمعها غير مصدّقةً أنّها تخرج من فمه. سألته:

- لماذا لم ترسلها لي من قبل؟

أجاب:

- لأنّني لم أرغب في أن أحطّم حياتك من جديد. وددتُ -رغم أنّني لم أفقد الأمل يومًا بأنّك ستعودين- أن تشعري بالشوق يجرفك إليّ وأن تعودي يومًا ما دون أن أناديك برسالةٍ. لم أرد أن تعودي إليّ بسبب توسّلاتي.

فسألته ذلك السؤال الذي ظلّ يزعجني منذ أن التقيت بـ«حياة»:

- ولماذا تزوجتَ إذن؟

- لماذا تزوجتِ أنتِ؟ أليست تلك الخطّة التي يتّبعها أيّ عاشق مكسور؟ أليس ذلك هو الخطأ نفسه الذي يقع فيه كلّ متألمٍ بعد قصة فراق؟ لكنّها جريمةٌ كبرى في حقّ الذكريات عندما نحاول أن نمحيها كأنّها لم تكن يومًا جزءًا منّا، كأنّنا خُلقنا مجرمين بالفطرة، فندخل إلى سجنٍ ثمّ نهرب منه إلى سجنٍ أكبر، كأنّنا عندما نرتكب خطيئة الوداع لا نجد سبيلاً للتكفير عنها سوى ارتكاب جرائم أعظم، فنقتل قلوبًا أخرى ونحكم عليها بأن تعيش معنا رحلة العذاب الأخيرة.

- وكيف يمكن للذكرى أن تغيب وقد أسميت ابنتك «حنين»؟ أم كانت تلك محاولة جديدة لتسلب منّي كلّ شيءٍ حتى اسمي وترسم له صورة أخرى بملامح أخرى، فتولد حنين لتقتل بها حنين؟

أمسك زياد بيدي وقال:

- تعالي معي.

دخلنا إلى غرفةٍ صغيرة ورديّة اللون، تزيّنها الفراشات والزهور. فهمت من تفاصيلها أنّها غرفة ابنته. توقّف عند لوحةٍ كبيرة معلَّقة على الحائط، عندما رأيتها شعرت بحالةٍ من الذهول! كانت صورة لي مرسومة بإتقانٍ شديد، حتى إنّها كادت تنطق. تلعثمت في حروفي محاولةً أن أسأله: كيف؟ لماذا؟ ومتى؟

قال:

- هل كنت أحاول قتلك عندما أسميت ابنتي على اسمك؟ أم أنّني كنت أقوم بآخر محاولاتي لأتمسك بك أكثر؟ كنت أخاف أن تتلاشى تلك الصور التي أحتفظ بها في خيالي فصرت أرسمك في لوحاتٍ وأعلّقها على جدران بيتي، أحتضنها وأقبّلها كأنّها أنتِ. أسميت ابنتي «حنين» ليبقى صدى ذلك الاسم ينتشر في كلّ زاوية ويعيدني كلّما خانتني ذاكرتي إليك ويعيد إلى قلبي الحنين.

بدأت أشعر بأنّ جدران الغرفة تتصدّع وأنّني سأسجن تحت ركام الألم فخرجت هاربةً. شعرت بضيقٍ شديد وكأنّ الهواء بدأ يتلاشى وعقارب

الزمن تدور بسرعة جنونيّة دون توقّف. لم أعد أحتمل ذلك الشعور الذي أصابني، كأنّه شعورٌ بالعجز والندم، ففي أحد يوم رفضتُ أن أعود إليه بعد أن تحوّلت أحاسيسي إلى كتلة من الصخور. قال حينها: «جرّبيني، ماذا ستخسرين؟». كيف لم أمنحه فرصة أخيرة؟ كيف لم أصدّق ندمه ومضيت في طريقي؟ وأيّ طريقٍ سأسلك الآن؟ كيف سأحتمل أن أعيش بجسدٍ دون روح وأترك روحي في هذا البيت وأمضي؟

قبل أن أفتح الباب لأخرج من قبري، ناداني قائلًا:

- هل سأراكِ مجدّدًا؟
- ربّما.

الفصل الثالث والأخير

«أمي هل أنتِ بخير؟»، سمعت صوت ابنتي توقظني من أحلامي؛ حاولت استجماع قوتي لأقول لها: «لا تقلقي، أنا على ما يرام».

جلستُ كما أفعل كلّ ليلةٍ بجانب النافذة المطلّة على الحديقة؛ أحضرتْ كرسيًّا وجلستْ بجانبي. شعرتُ بأنّ هناك أسئلةً كثيرة تودّ أن تسألها. حاولتُ أن أتهرّب من أسئلتها التي لطالما حملتها معها، فسألتها: «كيف كان يومك؟ أخبريني، كيف أمضيتِه؟».

صارت تحدّثني عن دراستها وبعض المواقف التي مرت بها، لكنّني كنت أرى الحزن في عينيها، كأنّها تعيش في دوّامة من الأفكار وتبحث عن إجاباتٍ لغرابة الأحداث التي مررنا بها. قبل أن تنهي حديثها بادرتني بسؤالٍ كان يشغل تفكيرها:

- هل كنت تحبّين أبي؟

أجبت:

- كان والدك أروع إنسانٍ عرفته. كان قريبًا منّي، يفهمني ويحاول دومًا أن يكون زوجًا مثاليًّا وأبًا رائعًا. لماذا تسألينني هذه السؤال؟
- لكن يا أمّي، كان يعرف أنّك تعيشين حالة حزنٍ لا تنتهي. فإن كان قريبًا منك إلى هذا الحدّ، كيف بقي الحزن ملازمًا لك تلك السنوات كلّها؟

- لماذا تظنّين أنّني حزينة؟
- حين كنت تدخلين إلى غرفتك وتمضين فيها ساعاتٍ طويلة وحيدةً، كنت أحاول أن أدخل لأحدّثك، لكنّه كان يقول لي: «اتركيها، فهي في حاجة إلى ذلك الوقت لكي تبكي بهدوءٍ ثمّ تعود إلينا من جديد وترسم على وجهها ابتسامتها العذبة». فأسأله: «ولكن لماذا تبكي؟»،
- فيقول لي: «يا ابنتي، هناك قصص نعيشها في مرحلةٍ من حياتنا تلتصق بنا وتصبح جزءًا منّا وكأنّنا خلقنا بها، مهما حاولنا نسيانها تعود إلينا من جديد».

نظرتُ إليها بتعجّب، وكانت تلك المرة الأولى التي أسمعها تحدّثني فيها عن تلك الأيام، تلك الأيام التي لا أعرف عددها، لكنّها طويلة وكثيرة.

سألتني من جديد:

- هل كنت تحبّين أبي؟

فأجبتها متهرّبة من سؤالها:

- هل تعرفين لماذا أسميتك «أحلام»؟
- لماذا؟
- لأنّك يا حبيبتي، الحلم الجميل الذي أعيشه، رغم الماضي الذي عشناه بتفاصيله كلّها، ورغم ما مررت به من لحظات ألمٍ، كنتِ وستبقين الحلم الجميل الذي أعيش لأجله أيامي. عندما اخترت لك هذا الاسم كان بمثابة طريقٍ أرسمه لك وحياةٍ تعيشينها. لا تتركي

أحلامك خلفك وحاربي الكون لتحققيها. لا تكوني مثلي ضعيفةً، بل كوني قويّة وانتهزي الفرص كلّها التي تهديك إيّاها الحياة. لا تتعبي نفسك بالبحث عن إجاباتٍ عن أسئلةٍ لا أعرف إجابتها. اتركي الماضي وألمه لي وعيشي المستقبل. كوني الأحلام التي لم أحقّقها يومًا وعيشي قصتي التي لم أعشها يومًا. كوني الأمل الذي يضيء عتمة روحي.

أسندت رأسها إلى كتفي، أغمضت عينيها، مسحت الدموع التي حاولت أن تخفيها عنّي وقالت لي:

- أشتاق إلى أبي كثيرًا. منذ رحيله عنّا وأنا أشعر بفجوة في قلبي لا شيء يملؤها. كم أشتاق إلى تلك الأيام التي كان يأخذني فيها إلى البحر فنمضي ساعاتٍ على الشاطىء ونراقب الأمواج والأطفال. أشتاق إلى طعام الإفطار الذي يعدّه لنا لنجلس معًا ونتحدّث عن أيّ شيءٍ، عن السياسة، الرياضة والموسيقى. كان أبي حنونًا ورائعًا، كان يفهمني. كان صديقي قبل أن يكون أبي.

أحسست بغصةٍ ومددت يدي أتلمّس شعرها وأهمس لها:

- إنّه هناك، يراقبنا من بعيدٍ. لقد رحل عنّا جسدًا إلّا أنّ روحه بقيت معنا. ترك لنا ذكرياتٍ جميلة نعيشها. يكفيني أنّه أهداني أغلى شخصٍ في حياتي، فلولاه ما كنتِ معي الآن.

طبعتُ قبلةً على جبينها، أغمضتُ عينيّ ومضيتُ في عالمي. قالت:

- هناك شيئًا قاله لي أبي في أحد الأيام وقد تذكّرته الآن. قال: «عندما يهطل المطر في ليلةٍ من ليالي نيسان، أخبري حنين بأن تبحث عن رسالتي».

نظرت إليها بتعجّبٍ:

- أيّ رسالة يقصد؟

فقالت:

- لا أعلم. قال ذلك منذ زمنٍ طويل وقد تذكّرتها اليوم حين هطل المطر.

في الصباح، استيقظتُ باكرًا وأعددت فنجانًا من القهوة وطعام الإفطار، ثمّ جلست أنتظر أن تستيقظ أحلام لنمضي معًا بعض الوقت قبل خروجها إلى المدرسة.

جلسنا معًا بعض الوقت، كنت أحاول أن أنسيها ليلتنا الماضية وأن أكون قريبة منها فربّما أخفف من ألمها.

أذكر أنّها استيقظت على رائحة القهوة فجاءت مسرعة كأنّها في تلك اللحظة ظنّت أنّه هو، أبوها. عندما دخلت إلى المطبخ بلهفةٍ ورأتني أمامها مبتسمة، أصابتها الخيبة لوهلةٍ، ثمّ قبّلتني وجلست بجانبي راسمةً على وجهها ابتسامة خجلى.

وفي اللحظة التي خرجت بها من البيتِ أسرعت إلى غرفتي وبدأت أبحث بقلقٍ شديد عن تلك الرسالة، هل هناك فعلاً رسالة أم أنّها تتخيّل؟

بعد وقتٍ طويل من البحث بين الرفوف والأدراج المغلقة، وقعت عيناي على كتاب خواطري القديم، كان مركونًا في إحدى الزوايا البعيدة، فقد توقّفت عن الكتابة منذ سنواتٍ طويلة ولم أجرؤ على فتحه منذ أن أقسمت بأن أغلقه إلى الأبد.

نفضت عنه غبار العمر وبدأت تتساقط الذكريات من حوافه الممزَّقة، وبينما كنت أقلّب صفحاته وجدت رسالة مكتوب عليها «إلى حنين»..

حبيبتي حنين..

إن وجدتِ هذه الرسالة فاعلمي أنّني بعدد الحروف التي كُتِبتْ فيها أشتاق إليك، وبعدد الحروف التي اخترتها بعنايةٍ أحبّك، وربّما أكثر.

لا أدري لماذا وجدت صعوبة كبيرة بأن أخبرك هذه التفاصيل في حينها، ولا أعلم لماذا أقف أمام عينيك الجميلة عاجزًا عن التصرّف رغم قوّتي.

لا أكتب لك معاتبًا، وإنّما لأخبرك عنّي أشياء لا تعرفينها.

ذهبت مرّة لأزور قبر والدتي قبل أن نلتقي بمدّة قصيرة. وبينما كنت أسير إليها محمّلًا بالألم والغضب من والدي وبمشاعر الكره التي نمت فيّ تجاهه بسبب العذاب الذي عاشته أمي معه، وجدته هناك! فصرت أصرخ وأقول له: «لماذا أنت هنا؟ ألا يكفيك ما سبّبته لها من ألمٍ لتأتي إلى هنا وتؤذي روحها النائمة بسكونٍ من جديد؟».

نظر إليّ والدموع تملأ عينيه وقال: «بل جئت إليها معاتبًا، فكيف ترحل عنّي وتتركني لوحدتي وبؤسي؟».

قلت له: «عن أيّ وحدةٍ تتحدّث؟ ألستَ مَن أذاقها من ويلات الألم ما زاد عن طاقتها فغدا جسدها ضعيفًا هزيلاً مستسلمًا. هل تظنّ أنّني لم أسمع صراخَك وبكاءها؟ تظنّ أنّني لم أرَ دموعها وألمها ولم أعش كلّ لحظات الانفجار التي لا أستطيع أن أعدّها؟».

قال: «وهل سألتَها يومًا عن السبب؟».

أجبته: «لا أظنّها قد عرفت السبب، وإلّا ما كنّا وصلنا إلى تلك الحال».

أردف قائلاً: «كانت تعرف، بل كانت هي السبب بحدّ ذاته. رغم حبي الكبير لها ما أحبّتني في يومٍ وبقيت معلّقةً بظلّ رجلٍ أحبّته قبلي. كنت كلّما نظرت إليها ورأيت تلك النظرات الباردة التي تبادلني بها أشعر بغيرةٍ عمياء لا طاقة لي على تحمّلها، فتصيبني نوبة من الغضب الشديد. كنت أظنّ صراخي سيخيفها ونوبات غضبي ستقضي على صورته في بالها فأضع صورة لي في قلبها».

هل تعلمين يا حنين كم منّا يعيش عمرًا كاملًا يحارب فيه صورًا احتفظ بها في ذاكرته ويخوض معها حروبًا طويلة وبعد أن ينال منه التعب يعود إليها ويحاول أن يعيد ترتيبها ليُصدَم حين يعرف أنّها لم تكن سوى صور لذكرى لم تكن يومًا حقيقة؟

كم من كلماتٍ نسمعها ونحن أطفال فتلتصق بنا وتصبح جزءًا منّا كحاسّة سادسة نضيفها إلى حواسنا، ودون وعيٍ نبني منها أحلامنا وطريقنا،

فتبقى -مهما كبرنا- تعبث بنا وتجرفنا إلى طرقٍ أخرى وتجعل منّا أشخاصًا آخرين لا نفهمهم ولا نحبّهم وكأنّها القانون الذي لا يمكن أن نخالفه أبدًا؟

هل تعرفين أنّ معظم المشاكل النفسيّة تنبع من الصدمات التي نعيشها في طفولتنا؟ فماذا أقول لك عن طفلٍ عاش صدمة تلو صدمة، وبعد أن تراكمت في ذاكرته البريئة الصور المشوّهة كبر فجأةً على حقيقة أبشع، حقيقة أنّها صور مزيَّفة لحقائق مزيَّفة؟ فصار البريء ظالمًا والمذنب جريحًا متألّمًا!

لا أعلم كيف يحتمل عقلنا الأحداث التي تمرّ بنا، ولا نشعر بحالة من الجنون المؤقت عند كلّ مصيبة تلمّ بنا. كيف نمضي في طريقنا متمسّكين بتلك النعمة التي أسموها «نعمة النسيان»! هل ننسى فعلًا؟ أم أنّنا نضع ذكرياتنا في صناديق نُحكم إغلاقها ونتركها أمام أبواب الماضي ونمضي؟

هل تذكرين ما قلتِه لي يومًا؟ فأنا أحفظ كلامك جيدًا، قلتِ:

«كلّما مرّ الوقت تعود إلينا الأحداث من جديد وكلّ مرةٍ تأتينا بصورةٍ جديدة وتنساب تفاصيلها فينا فنشعر بالفرح نفسه والألم نفسه، ولا نعي أنّها القصة نفسها إلّا بعد فوات الأوان، وكأنّها دائرة نعيش بين جدرانها، تدور وتدور وتبقى الحكاية نفسها».

ها هي الحياة تعود من جديد لتكتب لنا أن نعيش القصة نفسها والألم نفسه. لكن لا يمكن للدائرة أن تحيطنا بجدرانها وتدور بنا على هواها لأنّنا نملك قوّة أكبر منها ومن تلك الجدران الحديديّة التي تحاول أن تحيطنا بها، قوّة أكبر وأعظم. قوّة الإرادة!

كنت أعرف أنّ حبي لك أعمق وأكبر بكثير من ذرّات الحب التي كانت تنمو على جدران قلبك، لكنّها كانت تكفيني. فكلّما نظرت في عينيك أرى انعكاس صورة بيضاء نقيّة ذات خيوط ذهبيّة، تعطيني كلّ يوم أملًا جديدًا بغدٍ يزداد روعةً كلّما بدأ بك.

امسحي تلك الدموع البريئة التي أشعر بها تتساقط ألمًا وحزنًا، وارفعي خصلات شعرك الرماديّة. ابتسمي يا حنين، ولا تستلمي. لا تغلقي أبواب القلب، فمهما كبرنا نبقى أمام الحبّ أطفالاً. لا تجعلي من إحساسك بالمسؤوليّة عائقًا أمامك ولا تتركي للحزن سلطةً عليكِ. لا تستمعي إلى صوت العقل حين يُخطىء ولا تتبعي خطوات الآخرين مهما بدت لهم صائبة.

لكلٍّ منّا طريقه، لكلٍّ منّا حياته ولكلٍّ منّا قصّته التي يعيشها ويكتب تفاصيلها كما يحلو له. إيّاكِ أن تتركي أحلامك خلفك، فلن تكوني سعيدة أبدًا.

سأبقى أراقبك من هناك، وسأكون دومًا سعيدًا بقدر سعادتك.

ربّما لم يكن الحبّ كلّه الذي منحتك إيّاه كافيًا لك، لكن لا بأس! لا أحمل لك في قلبي سوى الحبّ، الحبّ كلّه.

أعلم بكلّ اللقاءات التي جمعتك بـ«زياد»، كنت أشعر بذلك الذنب الذي حملتِه في كلّ لقاءٍ جمعنا بعد ذلك. كنت أشعر بكلماتك تخرج منك معترفةً وسلاسل الخوف تمسكها وتعيقها عن البوح. لكن! هل جعلتك

يومًا تشعرين بالخوف من أن تصارحيني؟ هل جعلتك يومًا تخافين من مشاركتي تلك الأحاسيس التي تخفيها عنّي؟ ربّما، لا أدري، لكنّني كنت أعرف وأشعر وأفهم. كنت أحزن، لكنّني لم أندم يومًا على اختيارك وحبّك وجعلك مملكتي وحياتي.

أريدك قويّة يا حنين، لا تخافي ولا تتركي هذا التردّد الذي يتآكل في داخلك يعيق حياتك ويمنعك من الوصول إلى السعادة التي تستحقين.لقد دفعتِ ثمنًا لا يمكن احتماله وأمضيتِ عمرك في حزنٍ لا يمكن لأحد أن يعيشه، فكفى.. كفى ألمًا وبؤسًا.

سأنهي رسالتي بطلبٍ أخير..

لا تزوريني أبدًا، إلّا عندما يهطل المطر ويفتح زياد مظلّته ليحميك من زخّاته. حينها فقط تعالي لزيارتي وانثري على قبري ابتسامةً دافئة مثلك. سأكون في انتظار تلك الزيارة.

مع حبّي..

مروان

لم أعد قادرة على التنفس، كأنّ تلك الكلمات تحوّلت إلى إعصار من الأفكار المفترسة، صارت تنهش قلبي وعقلي. غدا جسدي في تلك اللحظة لوحًا من جليدٍ لا قدرة له على الحركة، تجمّد كلّ شيء وانقلبت ساعة الزمن من جديد! الطرق التي كافحت سنواتٍ لأمشيها رغم تثاقل خطواتي ورغم الأشواك التي تغطيها، غدت الآن جهنمًا موصد الأبوابِ لن أخرج منه مهما حاولت، ولا نهاية له مهما طال الزمن.

عن أيّ لقاءات يتحدّث؟ كيف له أن يمضي تلك السنوات في حالة صمت! كيف لم يسألني يومًا؟ ما هذا الكتمان والتحفّظ؟ هل كان فعلًا يراعي أحاسيسي ومشاعري وانهياري؟ أم أنّه اختار لحظة اللاعودة ليطلق عليّ رصاصة الرحمة فينتهي عذابي ويبدأ هلاكي؟

امتزجت أحاسيسي وما عدت قادرة على الفصل بين إحساسي بالندم وتلك الغصة التي تغرس أنيابها في قلبي حزنًا تارةً وغضبًا تارةً أخرى.

ذهبتُ مسرعة إلى صورة معلَّقة على الحائط، ينعكس فيها وجه مروان الذي أحببت، ذلك الذي إن ابتسم جعل من الصحراء حدائق زهور وفرح.

وقفت هناك أتأمّل تفاصيله التي غفلت عنها يومًا، تلك التي لم أرها من قبل، إذ أعماني الماضي بحسرته والقصص التي عشتها يومًا عن رؤية تلك القسوة، تلك النظرة التي لطالما شعرت معها بالأمان والسكون. ها أنا الآن أقف أمامها وعاصفة من الغضب تجتاح روحي وعقلي.

دون وعيٍ منّي صارت صرخاتي تخرج من أعماق روحي كأنّها رصاصات بندقيّة صيد، تلك التي تسمع تردّد صداها على بعد أميال طويلة.

وجدتُ نفسي أبكي وأصرخ وأسأله بحرقة: لماذا؟ لماذا الآن؟ لماذا كنت ظالمًا وحرمتني حقي في الإجابة؟ لماذا كنت أنانيًّا وحرمتني حقي في الدفاع عن نفسي؟ لماذا تهديني ثوب الندم وتطلب منّي أن ألبسه مبتسمة؟ لماذا تجعل من قطرات المطر نيرانًا تتهاوى على رأسي وما عادت ذراعاك تحميني؟

ألم تذكر في رسالتك أنّك عشت يومًا حكاية مشوّهة وذكريات مؤلمة لم تكن في يومٍ من الأيام صحيحة؟ ألم تغضب وتكره وتحقد على أبيك الذي عاش عمره متوحّدًا مع الألم ومتخفّيًا خلف قناع الإنكار كي لا ترى وجه الحقيقة؟ فلماذا كنتَ نسخة طبق الأصل من صورة تكرهها؟ لماذا أعدت الزمن وكتبته من جديد وجعلت من بعض الأفكار المشوّهة مدنًا نعيش فيها وسجونًا نتعذّب بين جدرانها؟

كنتُ في حالة من الجنون. شعرتُ -لكثرة صراخي وبكائي- بالأرض تدور حولي. جلست على كرسيٍّ قريب وبدأت صور من ألبوم الذكريات تخرج وترتطم بعقلي وروحي.

حملتني تلك الصور معها إلى ذلك اليوم وذلك الباب الذي أغلقته خلفي وعدت مسرعة إلى بيتي، فارتميت على سريري وقد شعرت بالبرد الشديد، فصار جسدي يرتجف وقلبي يخفق بشدة.

تلك الحالة التي خرجتُ بها من بيت زياد حاملةً معي حقيبة من الفرح، كبّلتني في الوقت نفسه بسلاسل من الندم والخجل، رغم صوته الذي كنت أسمعه يلاحقني ويسألني عن موعد لقائنا الثاني، إلّا أنّني لم أقوَ على النظر في عينيه وأنا أرى فيهما انعكاسًا لصورة لي لا أعرفها.

في ذلك اليوم تيقّنت من أنّ مشاعري نحو زياد حالةٌ دائمة، بل جزء لا يتجزّأ منّي. لم تكن حالة، بل هي أنا بما فيّ من حنين ولهفة وفرح واشتياق. كان الفرح والألم والابتسامة والدموع. كان زياد كلّ ما أملك من مشاعر. كان حجر الأساس لكلّ شيء، الصخرة التي بنيت عليها حياتي، الخارطة التي رسمت منها أحلامي، الماضي والحاضر، الغد والمستقبل والحياة كلّها.

لم يكن لقائي به يحتمل الصواب أو الخطأ، فمنذ أن وقفت أمام بابه، شعرت بأنّني قد خرجت من متاهة المشاعر التي عشت أحاول الهروب منها منذ سنين طويلة. كلّ مرحلة في حياتي بدأت به. لقد كان البداية لكلّ شيء، ولم يكتب لي يومًا نهاية لأيّ شيء.

ولكن في اللحظة نفسها أيقنت أيضًا أنّ حياتي صارت في كفّة، وفي الكفّة الثانية وضعت ابنتي ومروان وبيتي الذي ما غاب عنه الدفء يومًا. كان شعورًا ممزوجًا بطعم المرارة، كأنّه حربٌ لا يمكن لأيّ طرفٍ أن ينتصر فيها. لا يمكن فيها أن أختار طريقًا وأنا على يقين بأنّني سأحرق بيديّ كلّ شيء في الجانب الآخر. لا يمكن أن أحمل بيدي فرشاةً وألطخ بها تلك اللوحات الجميلة التي أمضينا عمرًا في رسمها.

في ذلك اليوم عدت مسرعةً إلى بيت زياد، وقبل أن أمدّ يدي لأطرق الباب، وجدته أمامي كطفلٍ صغير عثر على لعبته المفضَّلة بعد أن أضاعها.

تجمّدت أمام عينيه ولهفته، شعرت بالقلق الذي غمره وكدت أسمع صوت اصطكاك أسنانه، رأيت شفتيه ترتعشان بانتظار الإجابة.

نظرت إليه كأنّني أحاول أن أخترق الأسوار التي تحيط بنا، فبرغم أنّه أمامي، إلّا أنّ المسافة التي تفصلنا كبيرة جدًّا، لكنّني أول مرة لم أشعر بالغضب، كأنّني أعيش حالة من السلام الداخليّ، فكلّ مرحلةٍ عشتها معه كانت تسرق من عمري سنواتٍ وتحيطني بالأسى والظلم والألم.

قلت له: «إن عادت إليك حنين، فهل تتخلّى عن حنين؟ هل يمكن لك أن تكون قاسيًا إلى هذا الحدّ؟ هل يمكن أن تمسك يدي لنمضي تاركين خلفنا هذا الدمار وأولائك الضحايا الذين لا ذنب لهم سوى تعلّقهم بنا؟ هل تكون قاسيًا من جديد فتختار أن تبني سعادتك وحدك وتترك هذه الألوان

الزاهية كلّها في بيتك؟ لا أريد أن أسمع إجابتك، ففي كلا الحالتين سأشعر بالألم، إن تخلّيت عنّي أو عنهم. كلا الحالتين خسارة جديدة نكتبها في سطور حكايتنا. المعركة نفسها التي تخوضها بخسائرها كلّها، ستقع آثارها في الطرف الآخر من الشارع الوحيد الذي يفصل بيننا. لا تعدّ كلامي انهزامًا أو وداعًا. لا تحوّل حروفي إلى سكينٍ نقطع به ذلك الحبل الذي جمعنا منذ بداية الحكاية. ما أقوله اليوم لن يكون وداعًا، بل بداية جديدة. سيكون صفحة جديدة نكتبها وقصة جديدة نرسمها، أملاً نعيش عليه ومستقبلاً سنحاول الوصول إليه. سنكتب اليوم عهدًا جديدًا نكون فيه حكاية من زمن آخر (قلبان يعيشان في كوكب آخر)، ستبقى الحكاية في مدارها تدور إلى يوم غير محدَّد. سيأتي ذلك اليوم لا محالة لتحضنني بين ذراعيك وتهمس لي دون خوف أو ندم أنّنا اليوم معًا وسنبقى معًا إلى النهاية، فهذا ما كتبه القدر لنا وهذا ما كان مقدّرًا علينا: أن نعود برغم كل شيء».

عانقته وشممت رائحة عطره؛ أغمضت عينيّ كأنّني أحاول أن أحتفظ بتلك اللحظة في ذاكرتي لتبقى تلك الرائحة ملتصقة بي.

قبل أن أغادر قال لي: «لن نعيش في كوكبين منفصلين، فكما تحيا حنين في قلبي سيبقى بيتي الدافىء بين جدران قلبك. سأوقف عقارب الساعة ليبقى الزمن في حالة تجمُّد إلى أن نلتقي من جديد ونعود للحياة. وحين يهطل المطر يومًا سأرفع مظلّتي لأحميك ونسير معًا في طريق الأحلام. مهما كانت

الحياة ظالمة أحيانًا، سأتمسك دومًا بعود الثقاب. كما قلتِ، لن يكون وداعًا، بل سطرًا جديدًا نكتبه، ويومًا ما سنمسك بالقلم معًا ونكتب نهاية جديدة لكلّ شيء».

مرّت الدقائق بطيئة جدًّا وأنا أحدّق في صورة مروان. شعرتُ بأنّني أنتظر منه بعض الإجابات، كأنّني أنتظر منه كلامًا يخفّف حالة الحزن التي أشعر بها. كنت أتلهف إلى سماع صوته يقول لي: لا تقلقي يا حنين، فأنا معك.

لكنّ كلّ شيء تغيّر اليوم. لم يعد مروان سببَ راحتي، بل تحوّل إلى حاكمٍ ظالمٍ أطلق حكمًا أبديًّا عليّ وسلبني حقّ التوضيح. كنت أشعر بحزنٍ كبير كأنّ صدري مثقلٌ بالهموم وعلى وشك أن ينفجر.

حملت رسالة مروان وذهبت لزيارته، لكنّ إحساسي في هذه المرة كان مختلفًا. وقفت هناك متأمّلةً باقات الزهور التي تحيط به وتلك الشجيرات الصغيرة التي أعتني بها ليبقى لهذا المكان السحر نفسه والجمال نفسه الذي أحاطنا به مروان.

وقفت أمامه اليوم مثقلة بالعتاب ومليئة بالندوب التي رسمتْها كلماته على جسدي. شعرت بالدموع تنهمر دون إرادة منّي وتتساقط على وريقات الشجر الخضراء التي أخذت تهتزّ كلّما سقطت دمعة منّي، كأنّها ذبذبات تخرج من أعماق الأرض حاملة لي رسائل أخرى. ورغم غضبي وحزني، رغم عتابي وانزعاجي، وجدت نفسي أقول له:

إلى مَن كتب لنا الحياة على سطور من ذهب
وعزف لنا الفرح مقطوعة موسيقيّة..
إلى مَن كان لنا جدارًا من الأمان نستند إليه فلا ننحني..
إلى مَن بذل عمره بالعطاء ولم يكتفِ..
إليك اليوم محبّتي وشكري..
فلولاك ما كنتُ اليوم هنا..
وأمام تضحيتك اليوم أنحني..
فشكرًا لك على كلّ شيء.

وفي تلك اللحظة أحسست بذراع يلتفّ حولي وشعرت بأنفاسٍ دافئة تداعب خصلات شعري وتحملني معها إلى تلك السحب الرماديّة التي أحاطت بي من كلّ جانب. سمعتُ صوتًا يهمس لي: «أنا هنا، أحمل مظلتي لأحميك». ابتسمتُ وقلت له: «لكنّني لا أشعر بالمطر، فلمَ المظلّة؟».

اقترب منّي ممسكًا يدي، طبع عليها قبلة دافئة وهمس لي: «إن لم أستطع أن أحميك من قطرات دموع تتساقط حزنًا على وجنتيك، فكيف أقدر على أن أحميكِ من العواصف والمطر؟ أغمضي عينيك يا حنين، تأمّلي الظلمة التي تحيط بك اليوم، ابحثي في الزوايا كلّها عن ذلك النور البعيد ولا تخافي

إن تعثّرت في طريق الوصول إليه، فلن أترك يدك حتى تصلي. لا تخافي من الظلمة، فكلّها أوهامٌ نحيط أنفسنا بها. لا تصدّقي أنّ للحياة لونًا واحدًا ولا تسيري دائمًا في طريقٍ واحدٍ. لا تنظري إلى الخلف كي لا تتعثّري. تذكّري دائمًا أنّ ذلك النور البعيد هو الحياة. وسنبقى الحلم والحنين».

النهاية

الخاتمة بقلم الكاتبة

ربما لم تكن نهاية متوقّعة لقصة غير عاديّة، كلّ ما فيها غير عاديّ، قصة تجعلني أبكي في كلّ مرة أقرؤها، وكلّما تذكّرت تفاصيلها أشعر بألمٍ يعيقني عن التنفّس.

استغرقت في كتابتها أشهرًا عديدة شعرت خلالها بالحزن وحاولت أن أجعل من تفاصيلها الصغيرة لوحاتٍ واضحة المعالم.

كنت أرغب في أن يشعر كلّ مَن قرأها بأنّه فيها بطلاً وجزءًا لا يتجزّأ منها. أريد لكلّ قلبٍ أن ينبض حبًّا وأن يصدّق أنّ هناك أنواعًا من الحبّ لا تنتهي، أنّ هناك أنواعًا من الحبّ لا تكذب، وأناسًا قادرين على أن يعيشوا عمرهم كلّه متمسّكين بحبٍّ قديم.

كما كان قلبي دائمًا، عابثًا رافضًا أن ينسى. لكنّ الفرق بين قلبي وقلب حنين هو «زياد»، فليس العاشقون كلّهم «زياد»، ولا المخطئون كلّهم «زياد»، ولا الظالمون كلّهم «زياد».

أمّا الحبّ، فهو معادلة واحدة لا تتغيّر. إمّا أن تأتيك بفرحٍ أو أن تعطيك في كلّ سطرٍ ألمًا.

وعندما ندخل في تفاصيل الحكاية ونعود بها إلى البداية يتراود إلى ذهني دائمًا أن أسأل حنين: كيف تغيّرتِ؟ كيف أصبحتِ تلك الفتاة القويّة بعد أن كنت الصغيرة التي أضاعت سنين عمرها في ملاحقة طيف حبٍّ لا حياة فيه؟

ثمّ أسأل: لماذا أصبحتِ -حين ابتسم لك القدر وشاء أن تكوني مع مروان الذي كان مرآةً لك وبستانًا من العطاء والمحبّة- صورةً مشابهة لـ«زياد»؟

ربّما تحيّرني هذه التساؤلات كلّما تمعّنت في التفاصيل أكثر، لكن كما قلت في بداية الحكاية: ليست النهايات كلّها مؤلمة، إنّما يكمن الألم في البداية.

اليوم أعود من رحلتي التي أمضيتها برفقة حنين وزياد حاملةً معي حقائب كثيرة من الأحاسيس والحبّ والألم، حاملةً معي بعض الأمل أيضًا بأن تعيش كلّ فتاةٍ في زمنٍ يسمح لها بأن تعبّر عن مشاعرها وأن لا تكتم الألم في قلبها، فما يتراكم في القلب من ألم لن يأتي منه شيء سوى الألم.

أعود من رحلتي وقد أتعبني أن أغوص في بحور الذكريات، أنبش الصور التي حاولت أن أبقيها في حالة سكون وأعود إلى تلك اللحظات التي وقفت فيها عاجزةً وتلك الأيام التي ظننتها لن تنتهي، إلى حيث كنت هنالك أقف على شفير الانهيار. كنت أراه ينساب من بين أصابعي وكلّما حاولت التمسّك به أكثر انساب أكثر.

كنت أحاول النهوض دومًا والبدء من جديد، إلّا أنّني -رغم قسوته- لم أستطع يومًا أن أتجاوز حدود الوطن الذي رسمه لي. لم أستطع أن أغادر ذلك السجن الذي أحاطني به دون أسوار، لم أستطع أن أتّخذ قرار الرحيل رغم كلّ شيء، فأنا الحنين وأنا الحياة، ومع آخر سطرٍ ستبدأ الأحلام.

مع حبّي وألمي
دينا المعلوف
2022-1-29